الباب الثاني

أساليب ووسائل حوار القرآن الكريم

لأصحاب الحضارات

وينقسم هذا الباب إلى فصلين وهما:

- **الفصل الأول**: أساليب حوار القرآن الكريم لأصحاب الحضارات.

- **الفصل الثاني**: وسائل حوار القرآن الكريم لأصحاب الحضارات.

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنزل عليه الكتاب المعجز المهيمن على سائر الكتب، وآتاه جوامع الكلم، واختصره له اختصارًا؛ ليبين للناس ما نزل إليهم من دين ربهم الذي ارتضاه لهم، وتلك هي الحكمة والسنة.

وقد حوى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ضروبًا من فنون القول والبيان؛ ففيهما الخبر والإنشاء، والقصص والمواعظ، والأحكام والأمثال، والحلال والحرام، والمحكم والمتشابه، وألوان الحوار والجدال، وغير ذلك.

وهذه الأشياء كلها بما فيها الحوار ترجع إلى أمرين:

الأول: ما يتعلق بالموضوع والمعني، وهذا ما عرضنا له في الباب السابق «أصول الحوار وموضوعاته».

الثاني: ما يتعلق بالشكل والمبني الذي ورد به الحوار، والهيئات والصور التي سيق عليها، أو صيغ بها هذا الكتاب الجامع.

وهذا هو مناط حديثنا في هذا «الباب الثاني»، نتناوله بإذن الله تعالى في إيجاز، حتى يكتمل الحديث عن حوار القرآن لأصحاب الحضارات من حيث «المعنى، والمبنى» جميعًا.

وهذا الباب الأخير ينقسم إلى قسمين نذكرهما في الفصلين التاليين:

الفصل الأول: أساليب حوار القرآن الكريم لأصحاب الحضارات.

الفصل الثاني: وسائل حوار القرآن الكريم لأصحاب الحضارات.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

obeikandl.com

الفصل الأول
أساليب حوار القرآن الكريم
لأصحاب الحضارات

لقد قسمت هذا الفصل إلى مدخل وثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: مسالك الحوار والأدلة العقلية في القرآن.

المبحث الثاني: أقرب طرق الإقناع والإلزام.

المبحث الثالث: بعض أساليب القرآن في حوار بعض أصحاب الحضارات.

مدخل

(يطلق الأسلوب في لغة العرب إطلاقات مختلفة؛ فيقال للطريق بين الأشجار، وللفن، وللوجه، وللمذهب، وللشموخ بالأنف، ولعنق الأسد، ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضًا، وأنسب هذه المعاني بالاصطلاح الآتي هو المعنى الأخير، أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد.

- الأسلوب في الاصطلاح:

تواضع المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك.

- معنى أسلوب القرآن:

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه)[1].

والمراد من هذا توضيح الغرض الذي نرمي إليه من معنى الأساليب هنا، والذي يتلخص في أنه الفنون المختلفة التي ورد بها الحوار في القرآن؛ من طرق صياغتها، وصور عرضها،

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ١٩٨).

obeikandi.com

واختيار أسمائها، وأشكال الخطاب بها، ونحو ذلك مما تفرد به القرآن الكريم، مما يأتلف ظاهره بباطنه وينعكس مخبره على مظهره، ليكونا بهذه الصورة المركبة طابعًا خاصًّا معجزًا يبهر العالمين.

وأساليب القرآن مع تنوعها وانضباط أصولها وفروعها، تتفوق في أمرين هما من تمام إعجازها، وهما:

الأول: السمو في اختيار الألفاظ والتراكيب:

وذلك بإيثار اللفظ العفيف النظيف في المواطن التي يستحى منها، والتي يؤكد القرآن فيها الحياء والآداب والفضائل في نفوس أتباعه، فنجده -مثلًا- يعبر عن الجماع بالرفث أو المباشرة أو الملامسة أو المس أو السر وما شابهه من ألفاظ، قال تعالى: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾، ثم يقول: ﴿ **فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وعبر القرآن الكريم عن مكان الوطء بألطف عبارة فقال تعالى: ﴿ **فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

الثاني: الوضوح والتبيان:

مع كثرة طرق الأداء، وتنوع الأساليب، وتعدد موضوعاتها وأغراضها، وشمولها لكل نواحي الحياة، تأتي عامتها على غاية الوضوح والبيان، حتى إنها ليفهمها العامة والخاصة بمجرد السماع فهمًا يكفي لتحديد المراد.

فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعًا لحاجات الجميع، وافيًا لتجارب الجميع، ملائمًا لأذواق الجميع، متفقًا ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله وحده أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا.

وقد عدَّ ابن عباس -رضي الله عنهما- من أقسام التفسير قسمًا: «لا يعذر أحد بجهالته».

ويقول السيوطي نقلًا عن الزركشي تعليقًا على ذلك: «وأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، وكل لفظ أفاد معنى واحدًا جليًّا يعلم أنه مراد الله تعالى، فهذا القسم لا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وأنه لا شريك له في الإلهية، وإن لم يعلم أن لا موضوعة في اللغة للنفي وإلا للإثبات، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ونحوه طلب إيجاب المأمور به، وإن لم يعلم أن صيغة أفعل للوجوب، فما كان من هذا القسم لا يعذر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه؛ لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة»[(١)].

- **مراحل الاستدلال في علم الحوار والجدل والمناظرة:**

المرحلة الأولى: وهي طريقة السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على طريقتهم طريقة القرآن والسنة.

(لما كان التنوع والاختلاف حقيقة إنسانية طبيعية، وكان من ثمار هذا التنوع الاختلاف والتباين فيما يصل إليه الإنسان بتأمله وتفكيره، وإلى جانب هذا التنوع فإن الإنسان مفطور كذلك على التفاعل والتقاء الأفكار، والإفصاح عنها، وعرضها للحوار والجدل نشأ عن ذلك: الحجاج والنقاش وتبادل الأفكار واحتكاك بعضها ببعض)[(٢)].

ولما كان من وصف القرآن أنه فرقان يفرق بين الحق والباطل، فلا بد أن يكون قد اشتمل على تقرير الحق وإبطال الباطل بطرق وأساليب شتى؛ بالمحاورة والمناظرة والمجادلة، بذكر الشبه ونقضها، ومجادلة أهل الكتاب، وضرب الأمثال وحكاية المحاورات التي وقعت للسابقين من أصحاب الحضارات وغيرهم، وقد أرسى أثناء ذلك الدلائل الواضحة البينة لأصول علم الحوار والجدل والمناظرة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٤٠٠)، «النوع الثامن والسبعون» طبعة دار الكتب العلمية، وانظر: البرهان للزركشى (٢/ ١٦٤-١٦٦) وقد تصرف السيوطي في بعض الألفاظ.

(٢) تاريخ الجدل للشيخ/ محمد أبو زهرة (ص٧).

لقد حاور القرآن الكريم وجادل الخصوم فأفحم المعاندين، وألزم المنكرين، وأرشد المترددين الشاكين وأقنعهم بالدليل القطعي بصحة ما يدعو إليه، وقد نهج القرآن في رده على الخصوم مناهج متعددة وجادلهم بالمنع والنقض والمعارضة.

وجاءت السنة النبوية الشريفة بنفس منهج القرآن ونحا الصحابة نحوهما؛ فكان أسلوبهم في الحوار والجدل كما قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكانوا -الصحابة ومن بعدهم- يتناظرون في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام بالأدلة المرضية والحجج القوية، حتى كان قلَّ مجلس يجتمعون عليه إلا ظهر الصواب، ورجع راجعون إليه لاستدلال المستدل بالصحيح من الدلائل، وعلم المنازع أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل؛ كمجادلة الصديق لمن نازعه في قتال مانعي الزكاة، حتى رجعوا إليه، ومناظرتهم في جمع المصحف حتى اجتمعوا عليه، ومناظرتهم في حد الشارب، وجاحد التحريم، حتى هُدوا إلى الصراط المستقيم...»[(١)].

هذا هو الحوار الممدوح والجدل المحمود والمناظرة المرضية التي تُحق الحق وتكشف الباطل، وتهدف إلى الرشد، ويرجى معها رجوع المحاور عن الباطل إلى الحق، وهذه هي الطريقة التي كانت مشهورة قبل أن يفرد علم الحوار والجدل بمؤلفات مستقلة خاصة بعد تدوين أكثر العلوم في مصنفات خاصة وتميز العلوم عن بعضها، بعد استقرار المذاهب الفقهية وتدوين المدونات الخاصة بكل مذهب وكانت هذه هي:

المرحلة الثانية: ما بعد عصر الصحابة وبعد أن أُفرد علم الحوار والجدل بمؤلفات مستقلة خاصة بعد تدوين أكثر العلوم في مصنفات خاصة وتميز العلوم عن بعضها، بعد استقرار المذاهب الفقهية وتدوين المدونات الخاصة بكل مذهب.

وقد وصف شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المرحلة وصفا دقيقًا، فقال رحمه الله: «ثم صار المتأخرون بعد ذلك قد يتناظرون في أنواع التأويل والقياس بما يؤثر في ظن بعض الناس، وإن كان عند التحقيق يئول إلى الإفلاس، لكنهم لم يكونوا يقبلون من المناظرة إلا ما يفيد ولو ظنًّا

(١) العقود الدرية (ص٣١، ٣٢)، تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل (١/ ٤).

ضعيفًا للناظر.

واصطلحوا على شريعة من الجدل للتعاون على إظهار صواب القول والعمل، ضبطوا بها قوانين الاستدلال؛ لتسلم عن الانتشار والانحلال. فطرائقهم وإن كانت بالنسبة إلى طرائق الأولين غير وافية بمقصود الدين، لكنها غير خارجة عنها بالكلية، ولا مشتملة على ما لا يؤثر في القضية، وربما كسوها من جودة العبارة، وتقريب الإشارة، وحسن الصياغة، وصنوف البلاغة ما يحليها عند الناظرين، وينفقها عند المتناظرين، مع ما اشتملت عليه من الأدلة السمعية والمعاني الشرعية، والتحاكم فيها إلى حاكم الشرع الذي لا يعزل، وشاهد العقل المزكّي والمعدّل.

وبالجملة: لا تكاد تشتمل على باطل محض ونُكر صرف، بل لا بد فيها من مخيل للحق، ومشتمل على عرف»[(١)].

وهذه المرحلة أو الطريقة نسبها ابن خلدون إلى البزدوي، وقال: «وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال»[(٢)]. والإمام النووي نسبها إلى أول من ألَّف فيها أبي على الطبري[(٣)]، بينما ذكر طاش كبري زاده أن أول من ألف فيها هو ابن القفال الشاشي وسمى غيرهم غير أولئك[(٤)].

المرحلة الثالثة: بدأت واشتهرت على رأس القرن السادس على يد العميدي وصارت تعرف بالطريقة العميدية، قال ابن خلكان عنه: «كان إمامًا في فن الخلاف، خصوصًا الجُست[(٥)]، وهو

---

(١) المرجع السابق.

(٢)مقدمة ابن خلدون (ص٥٠٦).

(٣) تهذيب الأسماء والصفات للنووي (٣/ ٤٨).

(٤) مقدمة العميريني لكتاب ابن عقيل (ص٤٧-٦٢)، ومقدمة عبد المجيد ترك للمنهاج (ص٦-١٠).

(٥) الجُست: كلمة فارسية معناها: البحث والفحص والتقصي، ثم أصبحت عَلَما على فن من فنون علم الخلاف والجدل، وهو المبني على طريقة الفلاسفة والمتكلمين. انظر «المعجم الفارسي: فرهنك فرزان» (ص٣٠١) للدكتور/ طبيبان، و«تكملة المعاجم العربية» (٢/ ٢١١) لدوزي.

أول من أفرده بالتصنيف، ومن تقدمه كان يمزجه بخلاف المتقدمين...»[(١)]، وقد وصف ابن خلدون هذه المرحلة بقوله: «وهي عامة في كل دليل يستدل به من أيّ علم كان، وأكثره استدلال، وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة، وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسفسطائي»[(٢)].

ووصفها شيخ الإسلام وصفا بليغًا فقال: «ثم إن بعض طلبة العلوم من أبناء فارس والروم صاروا مولعين بنوع من جدل المموهين، استحدثه طائفة من المشرقيين، وألحقوه بأصول الفقه في الدين، راغوا فيه مراوغة الثعالب، وحادوا فيه عن المسلك اللاحب[(٣)]، وزخرفوه بعبارات موجودة في كلام العلماء قد نطقوا بها، غير أنهم وضعوها في غير مواضعها المستحقة لها، وألفوا الأدلة تأليفًا غير مستقيم، وعدلوا عن التركيب الناتج إلى العقيم، غير أنهم بإطالة العبارة، وإبعاد الإشارة، واستعمال الألفاظ المشتركة والمجازية في المقدمات، ووضع الظنيات موضع القطعيات، والاستدلال بالأدلة العامة -حيث لها دلالة- على وجه يستلزم الجمع بين النقيضين، مع الإحالة والإطالة، وذلك من فعل غالط أو مغالط للمجادلة، وقد نهى النبي ﷺ عن أغلوطات المسائل ؛ نفق ذلك على الأغتام الطماطم، وراج رواج البهرج على الغِرّ العادم، واغتر به بعض الأغمار الأعاجم، حتى ظنوا أنه من العلم بمنزلة الملزوم من اللازم، ولم يعلموا أنه والعلم المقرّب متعاندان متنافيان، كما أنه والجهل المركب متصاحبان متآخيان...»[(٤)].

- طرق الاستدلال القرآني:

لقد وصف الله تعالى حججه بالبالغة فقال تعالى: ﴿ **قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، قال الإمام القرطبي في تفسيره: «﴿ **ٱلْبَٰلِغَةُ** ﴾ أنها تبلغ مراده

(١)وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٢٥٧)، ومقدمة ابن خلدون (ص٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) المقدمة لابن خلدون (ص٥٠٦، ٥٠٧).

(٣)اللاحب: الطريق الواسع المنقاد الذي لا ينقطع، الفائق في غريب الحديث والأثر، باب اللام مع الجيم، (١/ ٤٩).

(٤) العقود الدرية (ص٣٣-٣٤)، تنبيه الرجل العاقل لابن تيمية (ص٥، ٦).

في ثبوتها على من احتج بها عليه من خلقه وقطع عذره إذا انتهت إليه فيما جعلت حجة فيه»[(١)]، وقال الإمام البقاعي: «﴿ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ أي: التي بلغت أعلى درجات الحق قوة ومتانة وبيانًا ووضوحًا ورصانة بسبب أنه العلم كامل القدرة»[(٢)]، وقال الطاهر بن عاشور: «﴿ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ هي الواصلة؛ أي الواصلة إلى ما قصدت لأجله، وهو غلبة الخصم وإبطال حجته»[(٣)]، وأتباع الحق يلزمون حجة الله فيلزمون كتاب الله وسنة رسوله فيقومون بالحق، ويهدون الناس إليه بأقرب طريق وبأوضح عبارة وأيسر خطاب، قال الإمام الشافعي: «أحسن الاحتجاج ما أشرقت معانيه، وأحكمت مبانيه، وابتهجت قلوب سامعيه»[(٤)].

وبلوغها لمراده تعالى يقوم على أصلين عظيمين؛ وهما الصدق والعدل، وعنهما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فسرها ابن كثير بقوله: «قال قتادة: صدقًا فيما قال، وعدلًا فيما حكم، يقول صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواهـ وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة»[(٥)].

وخلاصة القول: أن الله تعالى وصف كلماته بالصدق؛ أي في تصوير الواقع بقوله وإخباره عنه، ووصفها بالعدل الذي يعني حكمه الذي طلب من عباده إقامته بين خلقه، وحول هذين الأصلين العظيمين يدور الاستدلال القرآني.

فائدة:

قال ابن القيم: «تأمل خطاب القرآن تجد ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستويًا على العرش لا تخفى عليه خافية من أقطار

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٥/ ٣٨٨) بتصرف.
(٢) نظم الدرر للبقاعي (٧/ ٣١٣).
(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٨/ ١٥١).
(٤) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٧).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥).

مملكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه».

obeikandl.com

المبحث الأول
مسالك الحوار والأدلة العقلية في القرآن

لقد سلك القرآن الكريم طرقًا عدة في الاستدلال ردَّ بها على الخصوم وحاورهم بها.

وسأورد هنا نماذج عن طرق ومسالك الاستدلال القرآني في الرد على الخصوم، منها ما يلي:

السبر والتقسيم:

وهو باب من أبواب الحوار والجدل يتخذه المحاور سبيلًا لإبطال دعوى من يجادله، ويكون ذلك بحصر الأوصاف للموضوع الذي يحاور فيه، ثم يبين أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصية تسوّغ قبول الدعوى فيه فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع، والمنطقيون يسمونه الشرطي المنفصل.

تعريفه لغة: «هو: الاختبار، ومنه الميل الذي يختبر به الجرح، فإنه يقال له: المسبار، وسمي هذا به لأن المناظر يقسم الصفات ويختبر كل واحدة منها هل تصلح للعلية أم لا.

وفي الاصطلاح هو قسمان؛ أحدهما: أن يدور بين النفي والإثبات وهذا هو المنحصر، والثاني: أن يكون كذلك وهذا المنتشر»[1].

قال ابن الأنباري في شرح البرهان: «السبر يرجع إلى اختبار أوصاف المحل».

(التقسيم هو حصر الأوصاف، والسبر إبطال بعضها، فقوله: إبطالها من السبر، وهو لغة: الاختبار، فالسبر تابع للتقسيم لا يكون إلا بعده، وعبارة النظم قد أرشدت إلى هذا للإتيان بمع التي يكون مدخولها في الغالب متبوعًا، وهي أولى من قولهم: السبر والتقسيم لخلوصها عن المناقشة بأن السبر لا يكون إلا بعد التقسيم، وضمير هو عائد إلى ما دل عليه الكلام، وهذا تعريف للسبر والتقسيم، فالتقسيم هو الحصر لكل وصف يصلح في بادئ الرأي للعلية، ثم يأتي

(١) إرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٣١٧).

السبر -أي: اختبار الأوصاف- فيبطل ما لا يصلح للعلية ويستبقي ما يصلح لها)[١].

وقال شيخنا الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم القيعي -رحمه الله رحمة واسعة- في تعريفه: «هو الاستقراء التام لكل الجوانب، والفرض لكل الاحتمالات، ثم الكر عليها بالإبطال، فيثبت بذلك نقيض المدعى»[٢].

وقال صاحب المسودة «آل تيمية»: «مسألة: قال القاضي: الاستدلال بالتقسيم صحيح وهو أن يذكر أقساما محصورة فيبطل بالدليل جميعها إلا واحدا فحينئذ يتعين من غير دليل يخصه بالصحة ولم يذكر فيه خلافا وكذلك ذكره ابن برهان من غير خلاف وقسمه إلى ما يجوز في الظنيات والى ما يختص بالقطعيات.

مسألة: إذا قال المناظر: سبرت وبحثت لم أجد دليلًا أو قسماً آخر فإنه يقبل منه، ذلك إذا كان في مقام الفتوى والاجتهاد، فأما المناظر فلا يقبل منه ذلك على خصمه بل يجب على خصمه إظهار ذلك إن كان عنده لتحصل الفائدة، ولا يكون كاتمًا للعلم وقاصدًا للعناد، فإذا لم يظهره دل ظاهرًا على عدمه عنده أيضًا، وهذا قول الأكثرين، وذهب بعض الأصوليين فيما ذكره الجويني إلى أنه لا يقبل السبر والتقسيم في الظنيات، وذكره أبو محمد عن البخاريين وضعف مذهبه»[٣].

وقال صاحب «المنخول» عنه: «وقال القاضي: لا بد منه في العلل الشرعية كما في العقلية»[٤].

وقد ذكر السيوطي[٥] رحمه الله في «الإتقان» أن من أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ

(١) إجابة السائل شرح بغية الآمل (١/ ١٩٤).
(٢) الأصلان في علوم القرآن للأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم القيعي (ص٣٥٣).
(٣) المسودة لآل تيمية أحمد عبد الحليم بن تيمية وأبيه وجده، (١/ ٣٨٠).
(٤) المنخول لأبي حامد الغزالي (١/ ٣٥٠).
(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٥٩).

﴿أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۖ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وقد بين السيوطي رحمه الله وجه الاستدلال من هذه الآية الكريمة: «إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، ردَّ الله تعالى عليهم ذلك بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذكر ذكرًا وأنثى، فمم جاء تحريم ما ذكرته؟ أي ما علته؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدري له علة وهو التعبدي بأن أخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحي، أو إرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾.

فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حرامًا، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حرامًا، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معًا، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة أخرى؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه، وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال.

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة وبعض الضأن والماعز والبقر، أن الله تعالى ينبههم إلى أن التحريم يكون لوصف ذاتي في هذه المحرمات أو لوحي من الله أو أمر من رسول، وبما أنه لم يكن ثمة وصف ذاتي يقتضي التحريم، فهل كان التحريم بنص من رسول أو وحي من الله أو من أين جاء هذا العلم؟ والجواب: لا شيء من ذلك سوى الافتراء على الله والقول عليه بلا علم ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]».

وقال ابن عاشور: «فموقع جملة ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ بمنزلة الاستفسار في علم آداب البحث، وموقع جملة: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ بمنزلة المنع، وهذا تهكم؛ لأنه لا يطلب تلقي علم منهم، وهذا التهكم تابع لصورة الاستفهام وفرع عنها»(١).

الاستفهام التقريري:

وهو الاستفهام عن المقدمات الواضحة البينة البرهانية المعروفة التي لا يمكن لأحد أن يجحدها، وهي تدل على المطلوب لتقرير المخاطَب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل.

(وهذا النوع من أحسن جدل القرآن بالبرهان، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات، أو أن تكون بينة معروفة، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية).

واعلم أن القرآن لا يستدل في محاوراته ومجادلاته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها، كما هي الطريقة الجدلية المعروفة عند أهل المنطق، بل يستدل بالقضايا والمقدمات التي يسلمها الناس لتكون أدعى للانقياد للحق ومجانبة الباطل، ولا شك أن في الاستفهام استشارة وبيانًا لما في النفوس ليكون الإلزام أبلغ وأقوى.

- ومن أمثلة الاستفهام التقريري ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٧٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٤٤٧).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠].

قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٤٣].

الاستفهام الإنكاري:

وهو الذي يراد به الإنكار على المحاور أو المخاطب، وهو كقوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٣]، والإنكار هاهنا في نفس الفعل أنكر الله عليهم كونهم جعلوا الملائكة إناثًا وقالوا: هم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، المقصود إنكار أصل الإذن لا إنكار أنه كان من غير الله وأضافوه إليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٣] تقديره: لو وجدتم التحريم لكان محرمًا إما ذا أو ذاك، ثم يستدل ببطلان الأصلين على بطلان القسمين على بطلان أصل التحريم، ومثله قولك للرجل الذي يدعي أمرًا وأنت تنكره: متى كان هذا؛ أفي ليل أم نهار؟ وتقديره: لو كان

لكان إما في ليل وإما في نهار، ولما لم يوجد فيهما ثبت أنه ليس بموجود أصلًا، فكذلك تقول في الآية فإنها نفي لأصل الإذن لنفي أقسامه، وذلك أبلغ في النفي. وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ** ﴾ [هود: ٢٨] حصل الإنكار هاهنا بنفس الإلزام... وكذلك قول امرئ القيس[(١)]:

أتقتُلنـــي والمَـــشْرَفيّ مُـــضاجِعي ومـــسنونة زرق كأنيـــاب أغـــوال

الخلاصة: اعلم أن الاستفهام بمعنى الإنكار حاصله راجع إلى تثبيت السامع على فساد ذلك الشيء حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتد عنه، فعلى هذا لا يتصور إلا بالمحال على سبيل أن يقال له: أنت في دعواك كمن يدعي المحال، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ** ﴾ [الزخرف: ٤٠] وليس إسماع الصم مما يدعيه أحد، فيكون لذلك الإنكار، وإنما المعنى فيه تنزيل من يحاول إسماعهم منزلة من يحاول إسماع الصم، وإنما قدم الاسم في هذه الآية ولم يقل: أفتسمع الصم، لمعنى وهو اختصاصه ﷺ، كأنه تعالى قال له ﷺ: أنت خصوصًا تظن أنك تقدر على إسماعهم فتكون بمنزلة من ظن أن لنفسه قدرة على إسماع الصم.

واعلم أن حال المفعول في ذلك كحال الفاعل، فإذا قدّمت المفعول توجه الإنكار إلى كونه بمثابة أن يوقع به، مثل ذلك الفعل فإذا قلت: أزيدًا تضرب، كان على هذا الحكم، ولهذا قدم «غير» في قوله تعالى: ﴿ **قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا** ﴾ [الأنعام: ١٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ** ﴾ [القمر: ٢٤] فإنهم بنوا كفرهم على أن البشر ليس بمثابة أن يتبع ويطاع... واعلم أن صيغة المستقبل إما أن يكون الاسم مقدمًا أو الفعل فإن كان الاسم مقدمًا اقتضى شبيهًا بما اقتضاه في الماضي بمطالبته من الإقرار بكونه فاعلًا، فالإنكار لذلك، ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ **أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ** ﴾ [الزخرف: ٣٢].

---

(١) كتاب حياة الحيوان الكبرى، باب: الغين المعجمة، (٢/ ٥٣)، كان امرؤ القيس في زمان أنوشروان ملك العجم، لأني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحرث بن أبي شمرٍ الغساني، وهو الحرث الأكبر، والحرث هو قاتل المنذر بن امرئ القيس الذي نصبه أنوشروان بالحيرة، ووجدت بين أول ولاية أنوشروان وبين مولد النبي ﷺ أربعين سنةً، كأنه ولد لثلاث سنين خلت من ولاية هرمز بن كسرى: الشعر والشعراء لامرئ القيس بن حجر (١/ ١٧).

الاستفهام للمبالغة:

قد يأتي الاستفهام للمبالغة في التعظيم أو التحقير أو بيان الخساسة، ومثال الاستفهام للمبالغة في التعظيم: قوله تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١].

ومثال الاستفهام للمبالغة في الاستحقار: كقولك لرجل: أنت تمنعني، أنت تضربني، تستحقره بذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ [القمر: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤].

ومثال الاستفهام للمبالغة في بيان الخساسة: كقولك: أهو يسمع لهذا، أو يرتاح إلى الجميل، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

السؤال والجواب:

وهو أن يحكي كلامًا بقال ثم يجيبه بقال أيضًا، وهو في القرآن الكريم كثير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٣١].

وفي الشعر منه كثير، ومنه قول امرئ القيس[(١)]:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزةٍ ... فقالت لك الويلات إنك مُرجِلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعديني من جناك المعلّل

ومن بديعه قول بعض المتأخرين:

وكاملة الأوصاف وافرة الحيا ... إذا افتخرت بالحسن أعجزها المثل

شكوت إليها ما أجن من الجوى ... فقالت إذا اشتد الجفا عَذُبَ الوصل

فقلت أصم العاذلون مسامعي ... فقالت إذا صح الهوى بطل العذل

فقلت فما ذا عندكم لِمُدلّه ... فقالت له إما الحياة أو القتل

إذا شئت أن تحظى لدينا فكن ... لنا فريدا فلا مالٌ لديك ولا أهل

فكم هلكت في حبنا من معاشر ... وما نهلوا صفو الحياة ولا علُّوا

ولا ظفروا منا بأيسر طائل ... أتطمع بالتفريط في وصلنا جهل

الأقيسة التي يجري الاستدلال بها:

عن طريق إلحاق فرع بأصل في أمر مشترك بينهما؛ ليتقرر الحكم في المجهول كما هو مقرر في المعلوم، وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة.

لقد قسَّم ابن القيم -رحمه الله تعالى- الأقيسة تقسيمًا جيدًا ملخصه أن المستخدم منها في الاستدلال ثلاثة، وهي: «قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه، وقد وردت كلها في

(١) جمهرة أشعار العرب، معلقة امرئ القيس (١/ ٣٠)، عنيزة: اسم صاحبته، مرجلي: من الترجل وهو السير على الأقدام، الغبيط: البعير.

القرآن الكريم»[(١)].

«**قياس العلة**» هو: إلحاق فرع بأصل في حكمه لعلة مؤثرة مشتركة بينهما، وهو في القرآن الكريم كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فقد دلل على عبودية عيسى بإلحاقه بأصل هو آدم، والعلة الجامعة بينهما هي خضوعهما لمشيئة الله التكوينية، والحكم في العبودية.

«**قياس الدلالة**» هو: الجمع بين الأصل والفرع في الحكم، بدليل العلة وملزومها، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [فصلت: ٣٩].

فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه، على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي عموم قدرته عز وجل، وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة.

«**قياس الشبه**»: لم يقصه الحق -تبارك وتعالى- إلا عن المجرمين والمبطلين، ومثال ذلك: قياس الكفار الربا علي البيع، لمجرد الشبه الصوري بينهما، من أن كلًّا منهما تبادل ومعاملة بقصد التربح، مع انتفاء وجود علة جامعة بين النوعين، ولا دليلهما، وإنما هو الشبه الظاهر فقط، مع أن التفاوت والتباعد الشديد في حقيقة كلٍّ منهما، وعن هذا قال تعالى مبينًا بطلان قياسهم ومقالهم: ﴿ **بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ** ﴾، وعلى القول بالوقف هنا، فالمعنى: أن الله تعالى ردَّ عليهم بقوله بعدها مباشرة: ﴿ **وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ** ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وعلى القول بالوصل، فقوله تعالى: ﴿ **وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ** ﴾ (ويحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًّا عليهم؛ أي على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٣٣-١٥٠)، وفيه تفصيل كبير.

حكمًا وهو العليم الحكيم)[١].

والقياس المعتبر ينقسم أيضًا إلى قياس طرد وقياس عكس.

فالأول: يقتضي إثبات الحكم في الفرع؛ لثبوت علة الأصل فيه، كالأمثلة السابقة.

والثاني: يقتضي نفي الحكم عن الفرع؛ لنفي علة الحكم فيه، ومثاله قول الله تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

فالآيتان الكريمتان تتضمنان قياسين من هذا النوع، وقد ضربهما الله تعالى لذاته الجليلة، ولما ألهوه من الأوثان العقيمة، فنفى عنها حكم الألوهية التي أسبغها عليها المشركون، لانتفاء علته وهي كمال القدرة والقوة والتصرف وإطلاقها.

والمعنى: أن الله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق منه كيف يشاء على من يشاء من عباده، سرًّا وجهرًا، ليلًا ونهارًا، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، والأوثان كلها مملوكة عاجزة، لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله يعبدونها من دونه، مع هذا التفاوت العظيم والبون الشاسع والفرق البين؟[٢].

الأقيسة الإضمارية:

وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف، والناظر المستقري لأدلة القرآن يرى أن أكثرها قد حذفت منه إحدى المقدمات[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦).

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٦٠) بتصرف.

(٣) الجدل عند الأصوليين للدكتور/ مسعود بن موسى فلوسي (ص٣٦)، مناهج الجدل في القرآن للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص٧٠).

وذكر صاحب شرح الطحاوية ما نصه: «إن الطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف إحدى المقدمات وهي طريقة القرآن»[(١)].

وقال الشيخ محمد أبو زهرة نقلًا عن الإمام الغزالي رحمه الله: «إن القرآن مبناه الحذف والإيجاز؛ أي في شكل الأقيسة، واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله؛ لأنه خلق من غير أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠].

ولا شك أن المثل الذي ساقه الغزالي حذف إحدى المقدمات واضح فيه كما هو واضح من المقايسة بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مسوغًا لاتخاذ عيسى إلهًا، فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مسوغًا لاتخاذ آدم إلهًا ولا أحد يقول ذلك.

وإننا لنجد أنه قد حذفت مقدمة أخرى، وكأن سياق الدليل في غير كلام الله تعالى يكون: أن آدم خلق من غير أب ولا أم، وعيسى خلق من غير أب، فلو كان عيسى إلهًا بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابنًا ولا إلهًا باعترافكم، فعيسى أيضًا ليس ابنًا ولا إلهًا.

وإن الحذف قد صير في الكلام طلاوة وكسبه رونقًا، وجعل الجملة مثلًا مأثورًا يعطي الكلام حجة في الرد على النصارى، ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعًا ينتهون إليه وإنما خلق من تراب، فلا عزة إلا لله تعالى»[(٢)].

قياس الخلف «دليل التمانع»:

وهو امتناع الإمكان والوقوع عند التسليم بفرض من الفروض[(٣)]، وقيل: «هو إثبات الأمر بإبطال نقيضه»؛ وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان، ولا يخلو المحل من أحدهما؛ كالمقابلة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣).

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، لمحمد أبي زهرة (ص٣٩٨)، بتصرف.

(٣) الأصلان في علوم القرآن للأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم القيعي (ص٣٥٢).

بين العدم والوجود[١]، كإثبات الصدق ببطلان الكذب.

(وقد سمي بقياس الخلف، لأحد أمرين: إما لكونه يستلزم الرجوع من النتيجة إلى الخلف لأخذ المطلوب من المقدمة المتروكة والمجعولة وهي مقدمة الخصم الكاذبة، وذلك بالبرهنة بكذبها على صدق نقيضها. إما لكونه مضافًا إلى الخلف وهو الكذب المناقض للصدق)[٢].

وعند علماء الكلام يسمى بدليل التمانع؛ لامتناع وقوع فرض عند التسليم بنقيضه.

ودليل الخلف: أن يبطل النقيض فيثبت الحق، وإن القرآن الكريم يتجه في استدلاله إلى إبطال ما عليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان ويثبت التوحيد.

ومن ذلك: الاستدلال على توحيد صانع الكون وهو الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وتقرير الدليل أنه لو كان للعالم صانعان لما جرى تدبيرهما على نظام، ولا اتسق على إحكام، وَلَلَحِقَ العجز بهما أو بأحدهما، ولتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، وإن هذا التنازع يؤدي إلى فساد العالم لتناقض الإرادتين، وذلك أنه لو أراد أحدهما شيئًا كإحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض اتفاقهما، أو لامتناع الضدين إن فرض اختلافهما، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا، ولكن العالم صالح غير فاسد، فبطل ما يؤدي إلى الفساد، فكانت الوحدانية، فسبحان الله رب العرش عما يصفون.

والخلاصة: امتنعت الوثنية والشرك لامتناع الفساد فكانت الوحدانية.

ومن قياس الخلف في إثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢]، وإذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف ولا تضارب في مقرراته ولا عباراته فإنه يثبت النقيض وهو أنه من عند الله تعالى.

---

(١) مناهج الجدل في القرآن للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص٧١).

(٢) معيار العلم في فن المنطق لأبي حامد الغزالي (ص٩٠).

قياس الغائب على الشاهد:

وسماه البعض «قياس التمثيل» وهو: إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك بأن (يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهي لا تنكره العقول، وتقر به الأفهام، وبين الجهة الجامعة بينهما)[1].

وقد سلك القرآن الكريم في محاوراته واستدلاله هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقربًا ما بين الحقائق القرآنية والبداهة العقلية، بالدليل الواضح الجلي بعيدًا عن الغوامض والألغاز ودقائق المتكلمين، والتي تدل على عجزهم عن الإتيان بالواضح الجلي، وله نماذج كثيرة في القرآن الكريم؛ منها: كثير من استدلالات البعث تقوم على تقريب البعث وقدرة الله عليه بما يرى الناس من إنشاء الله لذلك الكون البديع، وخلق الإنسان وبيان أطواره من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات إلى أن يكون خلقًا سويًّا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ١-٧].

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن، لمحمد أبي زهرة (ص٥، ٦).

تأمل هذا المنطق الفطري، دعا فيه أولًا إلى اتخاذ الوقاية من غضب الله وسخطه، ولسائل أن يقول: وما قيمة هذا الاتقاء؟ فعلل الدعوة إليه بأهوال ستقع ينسى الإنسان فيها نفسه، وتنقطع فيها أوثق العلائق الأسرية... ومعرفة ذلك جاءت عن طريق السمع؛ إذ ليس للعقل في الغيبيات التي لم يرها مجال للنظر والتأمل، وعلى العقل أن يستخدم ملكاته وأن يقيس الشيء على نظيره، وعليه أن يحذر الوقوع فيما لا يعلمه، والجري وراء الذين يتحدثون بالتخمين ولا سند لهم في الإنكار إلا أنهم لم يشاهدوا ما جاء به السمع، وإذا أنصف العقل فعليه أن يدرك أن من يعلم يقدم على من لا يعلم، وأن عدم العلم لا يعد دليلًا؛ فقد لا أعلم شيئًا وهو عند غيري من المسلمات والبديهيات...

ولما كان المُخبَر عنه أمرًا غيبيًّا قرره القرآن الكريم بأمور مشاهدة:

أولها: خلق الإنسان من تراب، وهو الآن إذا نظر إلى نفسه استبعد أن يكون من تراب، ولم يعترف إلا بعد قطع شوط من العلم، فيدرك بعد التحليل أن في الجسم عناصر التراب.

ثانيها: الأطوار التي يمر بها الإنسان في بطن أمه، من غير أن يكون للوالدين أو لأحدهما أي تدخل لتغيير مسار هذه الأطوار أو لإبقائها...

ثالثها: حال الإنسان في الهرم، يضعف بعد قوة، وينسى بعد تذكر...

رابعها: ما يشاهده من أرض يابسة تُلقَى فيها بذور يابسة، فإذا سقط عليها الماء دبت فيها الحياة...

والنتائج المترتبة على تلك المقدمات ما أفصح عنها قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنه أخبر العقل بما لم يعلم من تلقاء نفسه، وأثبت له بالدليل الحسي أن ما أخبر به ثابت ولا يخبر بالحق إلا الحق ﴿وأنه يحيي الموتى﴾، فقد أحيا الأرض بالماء، ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦]؛ لأنه أوجد من التراب كائنًا يفكر ويخترع.

إذا ثبتت هذه النتائج الثلاث وهي بالقطع ثابتة؛ ثبت ما أخبر عنه من غيبيات: كالساعة لأن لها وقت آت، ومن أنكر وجود الغد فهو مكابر، وثبت بعث من في القبور، كما ثبت خروج النبات الحي من الأرض الجامدة.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٧٨-٨١]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

تجد في هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته في أبلغ تعبير وأسلم تقرير، وأن في هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما في الغيب على المشاهد، وقياس ما بينه الله تعالى وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئي مشاهد، وفيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى، وأنه المالك لما هو واقع، والقادر على ما لم يقع الآن ويقع مستقبلًا كما وعد، والله لا يخلف الميعاد.

والناظر في هذه الآيات وغيرها يجد الحق -تبارك وتعالى- قد استدل على المعاد الجسماني بضروب:

١- قياس الإعادة على الابتداء، كما في قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾، فإعادة الخلق أهون من ابتدائه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

٢- قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٧٩]، فالذي يستطيع خلق الأعلى أهون عليه الأدنى، والذي خلق السموات والأرض وما بينهما لا يعييه إعادة خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات: ١١]، وقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧].

٣- قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فإحياء الأرض بعد موتها أمر مشاهد ومتحقق يتفق عليه الناس جميعًا؛ لأنه ملموس محسوس مرئي مشاهد في حياة الناس، وقد استدل الحق -تبارك وتعالى- به على أمر مثله تمامًا ألا وهو البعث والنشور، ومع ذلك ينكره الناس ويجحدونه، والجامع بين حالتي موت الإنسان وموت النبات وفنائه في الأرض واحد، فكما أحيا الله النبات فهو قادر على أن يحيي الموتى، فالخالق والمحي واحد سبحانه، قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى-: «دل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته»(١).

٤- قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]، والدلالة من وجوه:

(أ) أن الله تعالى ذكر الأخضر وصفًا للشجر؛ لأن الأخضر هذا الموجود بورق الشجر هو عبارة عن مجموعة ضخمة متجاورة من البلاستيدات الخضراء والتي تسمى الكلوروفيل، وهي في حقيقتها عبارة عن مصانع ربانية تقوم بتركيز أشعة الشمس وتجميع حرارتها والتي بها تحلل ثاني أكسيد الكربون الذي فلترته من الهواء ونقت الأجواء منه وحمت الخلائق من ضرر تكاثره، فيتحول إلي عنصريه الذين يتكون منهما؛ وهما الأكسجين والذي يعاد إلى الهواء مرة أخرى لِيعوض ما استهلك الخلق منه، والعنصر الثاني هو الكربون والذي يتم تحويله عن طريق الماء إلى محلول سكري ينتقل إلى الأوعية التي يتكون فيها الخشب ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة؛ مثل: اللجنين والسوبرين، ويتم تجميعه داخل النبات فيصبح الخشب

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ١٣٩)، طبعة دار الجيل.

الذي يشتعل ويحترق بفعل الأكسجين الموجود في الجو، وينتج عن ذلك ثاني أكسيد الكربون مرة أخرى، وهكذا يتحول الكربون إلى ثاني أكسيد الكربون ويتحول مرة أخرى إلى كربون عن طريق الشجر الأخضر، والشاهد أن الذي أعاد خلق الكربون في الشجر هو القادر على إعادة خلق الإنسان بعد موته.

(ب) لقد ذكر الله تعالى في الآية ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة؛ وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشجر الأخضر، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم.

قال الإمام الطبري: «الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر نارًا تحرق الشجر لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز عن إحياء العظام التي قد رمت وإعادتها بشرًا سويًّا وخلقًا جديدًا كما بدأها أول مرة»[(١)]، وقال ابن كثير: «قيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء، وروي هذا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وفي المثل: لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار»[(٢)].

وقال القرطبي: «إن الشجر الأخضر من الماء، والماء بارد رطب ضد النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو القادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شيء قدير، ويعني بالآية: ما في المرخ والعفار وهي زنادة العرب»[(٣)]، وقال النسفي: «فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معًا بلا ترتيب»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٦٧).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٥٥).

(٤) تفسير النسفي (٤/ ١٥).

(ج) وهناك وجه آخر في الآية يدل على أمر البعث، وهو أيضًا من باب استخراج الشيء من ضده، فالشجر الأخضر من ماء، والماء بارد رطب ضد النار ومع هذا تشتعل فيه النار كما هو حادث الآن في بلاد أمريكا عندما تهب الأعاصير المحملة بالنار فتتحول هذه الأشجار إلى وقود للنار تزيد من حدة اشتعالها مع أن إطفاءها بالماء، وكما ثبت علميًّا أن هذا الماء عبارة عن عنصرين وهما: الأيدروجين وهي مادة تشتعل، والأكسجين وهو مادة تساعد على الاشتعال، فسبحان من جمع بينهما في مادة تطفئ النار المشتعلة من نفس المادة في الشجر الأخضر، فالقادر على خلق الشيء وضده قادر على أن يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

- القيامة حق لا ينفيه إنكار كثير من الناس لها، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٨].

وتحقيق ذلك: أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد، فلما ثبت أن هاهنا حقيقة موجودة لا محالة، وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفًا يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف؛ إذ كان الاختلاف مركوزًا في الفطر ولا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد ويفصل بين العباد، وهذه هي الحالة التي وعد الله تعالى بالمصير إليها، فقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩].

فقد صار الخلاف الموجود -كما ترى- من أوضح الأدلة على وقوع البعث[1].

التسليم:

وهو أن يفرض المحال؛ إمَّا منفيًا أو مشروطًا بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع

(١) نقله السيوطي عن ابن السيد في كتاب الإتقان في علوم القرآن بتصرف.

لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليمًا جدليًّا، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه لإفحام الخصم ووضع يده على الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والمعنى: أي ما اتخذ الله من ولد لتقدسه عن مماثلة أحد ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ يساهمه أو يشاركه في الألوهية؛ أي ليس مع الله من إله، وقوله تعالى: ﴿ إِذًا ﴾ يساوي لو سلم بالمدعى وأن معه سبحانه إلهًا؛ لتضاربت الآلهة، وقوله تعالى: ﴿ لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ جواب محاورتهم ومحاجتهم وجزاء شرط حذف لدلالة ما قبله عليه؛ أي لو كان معه آلهة كما تقولون للزم من ذلك التسليم ذهاب كل منهم بما خلقه واستبداده به وامتيازه بملكه عن ملك الآخرين، ولعلا أحدهما على الآخر وظهر بينهم التحارب والتغالب؛ أي غلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه، كما هو حال ملوك الدنيا، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تنتظم أحواله، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، والواقع خلاف ذلك، فالمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، ففرض إلهين فأكثر محال لما يلزم منه من المحال، واللازم باطل بالإجماع والاستقراء، وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد.

(وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك الملك، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فإنه يدل على نفي الولد؛ لأن الولد ينازع أباه في ملكه، ثم نزَّه سبحانه نفسه فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: من الشريك والولد، وإثبات ذلك لله عز وجل)[1].

وهذا النوع من الاستدلال قريب من قياس الخلف الآنف الذكر إلا أنه ينفرد عنه بالتسليم الجدلي الوارد في الخيال لا في الواقع.

---

(١) تفسير فتح القدير (٣/ ٧١١)، مناهج الجدل (ص٧٦).

المناقضة:

وهي تعليق الأمر على محال للدلالة على استحالة وقوعه أبدًا، ولبيان أن ما علق على المحال فهو محال[(١)]، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

أي: أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا علقه بالمستحيل فقال: ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾، (وهو لا يلج أبدًا، وخصَّ الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل في كبر الذات وعظم الجرم، وخصَّ سم الخياط وهو ثقب الإبرة بالذكر لكونه غاية في الضيق، والجمل الذكر من الإبل والجمع جمال وأجمال وجمالات، وإنما سمي جملا إذا أربع)[(٢)].

ويؤيد هذا ما ورد في الحديث: عن البراء بن عازب قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه... فذكر حديثا طويلًا، وكان مما ذكر فيه قوله: «**وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب**، قال: **فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ- ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا**

---

(١) الإتقان (٤/ ٦٥، ٦٦)، الأصلان للأستاذ الدكتور/ القيعي (ص٣٥٤)، آداب البحث للشنقيطي (ص٥٥، ٥٦).

(٢) تفسير فتح القدير (٢/ ٢٩٨) بتصرف.

﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى،فتطرح روحه طرحا -ثم قرأ- ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي فافرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»)[(١)].

إلزام الخصم بما يعترف به مما هو مشاهد محسوس:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

(والمراد بما يدعونه من دون الله: الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها، وقيل: المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحل والعقد فيهم، وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله، والأول أوفق بالمقام وأظهر في التمثيل)[(٢)].

(وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابًا مطاعين؟! وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان)[(٣)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) تفسير فتح القدير (٣/ ٦٧٢).

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/ ٨٩).

﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ ﴾ أي: لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟! ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ جَهّلهم غاية التّجهيل بأن أشركوا إلهًا قدر على المقدورات كلها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيل هي أعجز الأشياء، وبيَّن ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له؛ بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل، وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها؛ أي إذا أخذ منهم الذباب شيئًا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم، والاستنقاذ والإنقاذ: التخلص، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف وعن استنقاذ ما أخذه عليهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرمًا وأشد منه قوة أعجز وأضعف، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب فقال: ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، والمطلوب الذباب، واختاره ابن جرير وهو ظاهر السياق، وقال السدي وغيره: الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم، وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الآلهة.

إفحام الخصم ببيان أن دعواه تلزمه القول بما لم يقل به أحد وبما لم يعترف به هو:

وذلك أن كثيرًا من ادعاءات الخصوم يلزم منها أمور لا يقرّونها، فيمكن إفحام الخصم ببيان أن دعواه تلزمه القول بما لم يقله ولم يعترف به هو، ومثال هذا الاستدلال على من نسب لله الولد، بأن هذا يلزم منه وجود الصاحبة، وهذا ما لم يقل به أحد من هؤلاء الخصوم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

فإنه لم يقل أحد بأن له تعالى صاحبة، ومن ينسب إليه الولد يعتقد عدم وجود الصاحبة لله تعالى؛ إذ كيف يكون له ولد وليس له صاحبة، فقد (نفى التولد عنه تعالى لامتناع التولد عن شيء واحد، وأن التولد إنما يكون بين اثنين وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضا فإنه خلق كل

شيء، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلًا بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالمًا أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور - كالحرارة والبرودة- فلا يجوز إضافة الولد إليه)[1]، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(١) كتاب «الرد على المنطقيين» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

obeikandl.com

المبحث الثاني

أقرب طرق الإقناع والإلزام

إن من أساليب القرآن الكريم أخذ المحاور بأقرب طريق للإقناع والإلزام، ومن ذلك:

١- الاستدلال بالتحدي:

وهو أن يؤيد دعواه بمعجزة أو آية يعجز محاوره أو خصمه عن الإتيان بمثلها، مثال ذلك:

(أ) تحدى الحق -تبارك وتعالى- كفار قريش؛ بل كفار الإنس والجن جميعًا بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فلما عجزوا تنزل معهم بالتحدي على أن يأتوا بعشر سور من مثله، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، فلما أعياهم الأمر تنزل معهم بالتحدي على أن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

ولقد أكثر المشركون الخوض في القرآن وحاولوا معارضته بالنقض والإبطال؛ فتارة يقولون: إن الرسول ﷺ تعلمه من غلام أعجمي، وتارة يقولون: إن الرسول ﷺ جمع أخبار الأمم الماضية واكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الافتراء بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقد اعتمد المشركون في تشكيكهم في القرآن على أمرين:

١- أن الرسول ﷺ تعلم القرآن من معلم أعجمي.

٢- أن هذا القرآن من وضع البشر وليس من عند الله.

وقد سبق لنا الرد على هاتين الشبهتين في الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الرسالة.

والخلاصة: أن الرسول ﷺ رجل أمي، وقد لبث في قومه زهاء أربعين سنة قبل الرسالة لا يتحدث بشيء من القرآن ولا يدعي النبوة، ثم ظهر في مجتمع أمي تسوده الفوضى والعصبية الهوجاء، ولم يكن له صلة بالعلوم والقوانين والأنظمة العالمية الأخرى، ومع هذا أتى بأخبار الماضين وما فيها من العلوم الغيبية التي ليست في مقدور البشر، وأتى بهذا التشريع المحكم والنظام العام الذي يتحدى كل نظام وضعي إلى الأبد، ثم آمن به جماعة من جزيرة العرب كانوا رعاة إبل وغنم، فانطلقوا منها إلى الآفاق فإذا هم ساسة شعوب وقادة أمم.

إن هذا وحده إعجاز وبرهان على أن القرآن من عند الله تعالى، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، وبقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وبيَّن تعالى بعضًا من معارضاتهم وتعنتهم بقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥].

وقد كان الجواب عليهم بقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

وبهذا يتبين أن معارضتهم للقرآن باطلة، وأنها منقوضة من جهتين:

- من جهة نقض أدلتها وإدحاض شبهاتها.

- من جهة قيام التحدي وانهزامهم أمام عظمة هذا القرآن الكريم، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

﴿ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن هذه الآية نعلم أنه معجز لسائر الأمم، وكون القرآن نزل بلغة العرب لا يمنع أن تقوم الحجة على جميع البشر؛ فإن الرسالة عامة، وإذا عجز عن المعارضة أهل الصناعة البلاغية وأصحاب اللغة العربية فغيرهم عن الإتيان بمثله أعجز، فهو معجز للعرب بطريق الالتزام ولغيرهم بطريق الإلزام، فسبحان الذي أنزل هذا القرآن العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

(ب) تحدى نبي الله إبراهيم عليه السلام الملك المدعي للإلوهية، وعن هذا قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والقرآن الكريم لا يزال معجزة خالدة تتحدى الأجيال قرنًا بعد قرن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢- مطالبة الخصم بتصحيح دعواه وإثبات كذبه في مدعاه:

فمتى كانت الدعوى عارية من الدليل، خالية من السلطان والبرهان؛ سقطت، وذلك كدعوى اليهود بأن النار لن تمسهم إلا بقدر الأيام التي عبدوا فيها العجل كما ذكرها بعض المفسرين، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ومن المعلوم أن هذه الدعوى كانت في أمر غيبي لا يثبت إلا بالوحي، فكأن القرآن قال لهم: دعواكم هذه مبنية على أحد افتراضين: إما أن يكون عندكم عهد من قولكم هذا تقولًا على الله بلا علم فتكون دعواكم خالية من الدليل.

والـــدعاوى مـــا لم يقيمـــوا عليهـــا بينـــات أصـــحابها أدعيـــاء

وبما أنه لم يثبت عندكم من عند الله عهد فقد انتفى هذا الافتراض، وثبت الافتراض الثاني وهو أن دعواكم خالية من الدليل فبطلت لخلوها من العلم والبرهان، ويؤيد هذا ما ذكره ابن القيم في تفسير هذه الآية فقال رحمه الله: «فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة خبر عن غيب لا يُعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولًا على الله بلا علم فيكون كاذبًا، وإما أن يكون مستندًا إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعًا، فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا، قائله كاذب على الله تعالى»[(١)].

وهذا النوع كثير في القرآن الكريم، وهو نوع بديع من أنواع الحوار والجدل؛ لأن فيه قطعًا للخصم وإفحامًا له.

وهذه الآية نزلت في اليهود وهي تثبت كذبهم فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ **قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا** ﴾ أي بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل؛ أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه، (قال في الكشاف: وأم إما أن تكون معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير؛ لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة، انتهى. وهذا توبيخ لهم شديد، قال الرازي في تفسيره: العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد، وإنما سمى خبره سبحانه عهدًا؛ لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة)[(٢)].

وقال العوفي: عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ** ﴾؛ أي اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة -زاد غيره- وهي مدة عبادتهم العجل، وحكاه القرطبي عن ابن عباس وقتادة، وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٤٣).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٦٥).

فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها قوم آخرون؛ يعنون محمدًا ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم- فقال رسول الله ﷺ بيده على رءوسهم: «**بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ الآية[(١)].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله بسنده: (عن أبي هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «**اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا**»، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان، قال: «**كذبتم؛ بل أبوكم فلان**»، فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أهل النار؟**» فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبدًا**»، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟**» فقالوا: نعم. قال: «**فما حملكم على ذلك؟**» فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضر)[(٢)].

ثم تأتي الآية التي بعدها فتقرر الوضع الصحيح، وأن دخول النار والبقاء فيها مرتبط باقتراف الخطيئة؛ حيث قال تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٨١]؛ أي: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**»[(٣)] وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٦٧).

(٢) رواه البخاري باب إذا غدر المشركون بالمسلمين رقم (٣١٦٩)، والنسائي رقم (١١٣٥٥)، والبيهقي في دلائل النبوة، والإمام أحمد من حديث الليث بن سعد.

(٣) رواه أحمد في المسند رقم (٢٢٨٦٠)، والطبراني في الكبير رقم (٥٧٣٩)، وفي الأوسط والصغير.

حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا فأنضجوا ما قذفوا فيها.

وهل الجبال إلا من الحصى، وهل النار إلا من مستصغر الشرر.

٣- القول بالموجب:

وهو رد دعوى الخصم من فحوى كلامه[١]، كأن يثبت الخصم صفة لشيء، فيثبتها المحاور لشيء آخر غير الذي يقصده الخصم، وجعله بعض العلماء قسمين:

أحدهما: «تعليق شيء على شيء فيسلم به ثم نقل المعلق عليه إلى حقيقته»[٢]، وقيل: «أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فيثبتها لغير ذلك الشيء»[٣]، وقيل: «هو تسليم الدليل مع بقاء الأنواع ببيان محل الاستدلال غير تام الإنتاج، وفيه إطماع في الموافقة، ثم كر على استدلالهم المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم»[٤]، ومثلوا ذلك بقوله تعالى: ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون: ٨]، فـ ﴿ **ٱلْأَعَزُّ** ﴾ في كلام المنافقين وقعت كناية عن فريقهم، و﴿ **ٱلْأَذَلَّ** ﴾ كناية عن فريق المؤمنين، أثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، وإذا أثبتها -تبارك وتعالى- له ولرسوله وللمؤمنين، فكأنه قيل: صحيح ما تقولون ﴿ **لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ** ﴾، ولكن الأعز هو الله ورسوله والمؤمنين، وأنتم الأذل وستخرجون منها.

ومثال آخر: ما حكاه رب العزة والجلال من قول الكفرة لرسلهم: ﴿ **إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ** ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وهذا الطلب كان بعد إتيانهم عليهم السلام لهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له الجبال الصم، أقدمهم عليه العناد والمكابرة، قالت لهم رسلهم مجاراة لأول مقالتهم: ﴿ **إِن**

(١) ذكره السيوطي عن ابن أبي الإصبع.

(٢) الأصلان في علوم القرآن للأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم القيعي (ص٣٥٣).

(٣) مناهج الجدل في القرآن للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص٧٤).

(٤) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٢٢٦٩).

﴿ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ أي إن نحن إلا بشر مثلكم كما تقولون، وهذا القول بالموجب؛ لأن فيه إطماعًا في الموافقة، ثم كر إلى جانبهم بالإبطال بقولهم عليهم السلام: ولكن الله يمن على من يشاء من عباده؛ أي إنما اختصنا الله تعالى بالرسالة بفضل منه سبحانه وامتنان.

وثانيهما: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يتحمله بذكر متعلقة، قال السيوطي رحمه الله في كتابه الإتقان: «ولم أر من أورد له مثالًا من القرآن، وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١]».

قال الجوهري: يقال: رجل أذن: إذا كان يسمع مقال كل أحد، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه أنه أذن مبالغة؛ لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع، حتى كأن جملته: أذن سامعة، وإيذاؤهم للنبي ﷺ هو قولهم: ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾؛ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما يقال له، ولا يفرق بين الصحيح والباطل؛ اغترارًا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرمًا وحلمًا وتغاضيًا، فرد الله تعالى عليهم إقرارًا بما قالوه: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير لكم وليس بأذن في غير ذلك، فسلّم الحق -تبارك وتعالى- لهم بما وصفوه به، ثم انقض على ذلك الوصف فبين حقيقته.

٤- مجاراة الخصم لتتبين عثرته:

وذلك بالتسليم للمحاور أو الخصم في بعض ما يدعيه من مقدمات مع الإشارة إلى أنها لا تنتج ما يريده هو؛ بل هي مساعدة على إنتاج ما تريده أنت مع نقض مدعاه، بل وقلب نتائج قوله عليه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فكأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد سلموا لأقوامهم قولهم عنهم: إنهم بشر،

وقالوا في الرد على المنكرين لنبوتهم: ما ادعيتموه من كوننا بشرًا حق لا ننكره، ولكن ما تريدون أن تبنوا عليه دعواكم هذه أننا لسنا رسل باطل، ولا ينافي أن يمن الله علينا بها، وهو قد منَّ علينا بها، وقدمنا لكم السلطان -أي الدليل- ولا سلطان لنا إلا ما يأذن به الله تعالى، بل إن البشرية شرط في الرسالة إلى عامة البشر، فإن سنة الله جرت بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، يعرفون قدره ومكانته وصدقه وأمانته، وقد بيَّن الله تعالى هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

والاستدلال بمجاراة الخصم قريب من القول بالموجَب -بفتح الجيم- الذي تقدم ذكره، إلا أن الفرق بينهما يرجع إلى الوصف الذاتي الوارد في كلام الخصم في القول بالموجب، فإنه قد عُومِل بنقيض قصده الوارد على لسانه، أما مجاراة الخصم ففيه تسليم لبعض المقدمات مع بيان أن هذه المقدمات غير مانعة من نقيض قصده، فهي مراد لا يمنع من الإيراد، وفي مجاراة الخصم اجتذاب له، وإذا سلمت بعض مقدماته فعليه أن يسلم بالنتائج الصحيحة وإلا وقع في الإلزام.

٥- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها أو كذبه:

من ذلك قوله تعالى في شأن اليهود: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١]، فقد ادعوا ادعاءً كاذبًا بأن الله تعالى لم يُنزِّل على بشر من شيء، وفي هذا الادعاء سلب كلي، فكذبهم الله بما يعترفون به وهو اعترافهم بأنهم أصحاب كتاب وهو التوراة التي بين أيديهم ويفتخرون بها على العرب، وبأنها منزلة من عند الله، وفي هذا إيجاب جزئي مناقض للسلب الكلي الذي وقعوا فيه، وهذا تناقض في الحقيقة والواقع كما هو في قرارة أنفسهم، وهو مسلك من مسالك الإفحام والإلزام.

وقد ذكر الإمام الطبري والقرطبي وابن كثير[١] والشوكاني وغيرهم أن هذه الآية نزلت في اليهود، قاله الحسن وسعيد بن جبير، وقيل: في أفراد منهم، قيل: فنحاص، ذكره السدي، وقيل: مالك بن الصيف، قاله سعيد بن جبير، وقيل: نزلت في مشركي العرب، ورجحه الطبري[٢]، ورواه عن ابن عباس ومجاهد عبد الله بن كثير، ورجح القرطبي[٣] أن قراءة: (يجعلونه قراطيس يخفونها...) بياء الغيبة في مشركي العرب، وقراءة: (تجعلونه...) في اليهود.

وقال الشوكاني في فتح القدير[٤]: «ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم من اليهود، أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾، وهم يعترفون بذلك ويذعنون له، فكان في هذا من التبكيت لهم والتقريع ما لا يقادر قدره مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على البشر وهم الأنبياء عليهم السلام، فبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم، وقيل: إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش، فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ويعلمونه بالأخبار من اليهود وقد كانوا يصدقونهم».

٦- بيان أن دعوى الخصم خالية من الحجة وأن البرهان قام على النقيض من ذلك:

كقوله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٠).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٦٢).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣٥).

(٤) تفسير فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٠١).

يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول أنه قال: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾ أي: تجادلونني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة، وقوله: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ ﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن إن يشأ ربي شيئًا سوءًا فيكون ما شاء[1]؛ أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل، ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ ﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: فيما بينته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها، وتميزوا بين الصحيح والفاسد، والقادر والعاجز.

وقوله: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ ﴾ (وهو حقيق بأن يخاف منه كل الخوف؛ لأنه إشراك للمصنوع بالصانع، وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع)[2]، قال ابن عباس وغير واحد من السلف: سلطانًا: أي حجة -أي ما لم ينزل بإشراكه كتابًا أو لم ينصب عليه دليلًا- وقوله: ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّۚ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ أي: فأي طائفتين أصوب الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله -في الحياة الدنيا- ويوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئًا هم

(١) تفسير البغوي (١/ ١٦٣).

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٤٢٦).

الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة[١].

والخلاصة: كأن نبي الله إبراهيم عليه السلام قال لهم: إن المحاجة لا تقوم إلا على الحجة أو البرهان، ولم تثبتوا على مدعاكم شيئًا من ذلك، أما أنا فقد قام البرهان على هدايتي إلى طريق الحق والصواب، فلِمَ لا تقبلون الحق المؤيد بالحجة والبرهان؟ ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ** ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ومثل هذا ما حكاه الله تعالى من قول إبراهيم لأبيه: ﴿ **يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٢-٤٣].

(الاستفهام في ﴿ **يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ** ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿ **مَا لَا يَسْمَعُ** ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿ **وَلَا يُبْصِرُ** ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التي تفعلها مريدًا بها الثواب، ويجوز أن يحمل نفي السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك؛ أي لا يسمع شيئًا من المسموعات، ولا يبصر شيئًا من المبصرات ﴿ **وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا** ﴾ من الأشياء فلا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضررًا، وهي الأصنام التي كان يعبدها آزر. أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح وصدر كلًّا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه وامتثالًا لأمر ربه)[٢].

(واحتج عليه أبلغ احتجاج وأرشقه برفق وحسن أدب؛ حيث لم يصرح بضلاله، بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه، فضلًا عن عبادته التي هي غاية التعظيم، ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام، وهو الخالق الرزاق، المحيي المميت، المعاقب المثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح، والشيء لو كان حيًّا مميزًا سميعًا بصيرًا مقتدرًا على النفع والضر، ولكن كان ممكنًا لاستنكف العقل القويم عن عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٧٩).

والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جمادًا لا يسمع ولا يبصر، ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظًا من العلم الإلهي مستقلًّا بالنظر السوي)[1].

٧- الاستدلال بوجود الأثر على وجود المؤثر:

وذلك مثل ما صنع إبراهيم عليه السلام في مناظرته لأصحاب الهياكل «عباد الكواكب» وهم من أصحاب الحضارات، وكيف استدل على وجود الله بآثار إيجاده تعالى لخلقه.

وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟

القول الأول: أنه مقام نظر، فأجراه بعضهم على الظاهر وقالوا: كان إبراهيم عليه السلام مسترشدًا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى وآتاه رشده، فلم يضره ذلك في حال الاستدلال، وبه قال ابن جرير[2]، وروي عن ابن عباس ما يقتضي ذلك.

وقال محمد بن إسحاق: كان ذلك في حال طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفرًا، حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمرود بن كنعان لما كان قد أُخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذ، فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك،

(١) تفسير البيضاوي (١/ ١٧، ١٨).

(٢)الطبري (٥/ ٢٤٤).

وذكر أشياء من خوارق العادات كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

القول الثاني: وهو الراجح أن هذا المقام مقام حوار ومناظرة مع قومه وهم أصحاب حضارة، ويؤيد ذلك ما قاله ابن كثير في تفسيره: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام»(١).

والمقام هنا مقام مناظرة لا نظر لعدة أسباب منها:

غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأخبر عنه، وهو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فقال عنه تعالى: ﴿ **إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الصافات: ٨٤]، وكيف لا وقد اصطفاه الله تعالى من قبل ميلاده لحمل أمانته ورسالاته، قال تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ** ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال ابن الأنباري: «إذا كانت عبارة ﴿ **هَٰذَا رَبِّى** ﴾ خبرية فيستحيل عليه أن يكون هذا الإخبار على سبيل الاعتقاد والتصميم لعصمة الأنبياء من المعاصي فضلًا عن الشرك بالله.

كيف يصح أن يتوهم هذا على نبي الله إبراهيم وقد عصمه الله تعالى وأتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، فلا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أول النظر، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ** ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أَفَتَراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبًا قال: هذا ربي معتقدًا؟ فهذا ما لا يكون أبدًا، والإراءة للعلم الكامل؛ أي ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ إراء تبصير وفهم ليعلم علمًا على وفق ذلك، وهو العلم الكامل، والواو هنا إما للمعية فلا يدرى أيهما كان أولًا؛ رؤيته للملكوت أم يقينه، ليكون ممن يقر

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٢).

بتوحيد الله ويعلم حقيقة ما هداه له وبصره إياه من معرفة وحدانيته وما عليه قومه من الضلالة من عبادتهم الأصنام واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى، وذكر أبو حيان «أن العطف هنا على علة محذوفة تقديرها: أريناه الملكوت ليقيم الحجة على قومه، وقال قوم: ليستدل بها على الصانع، وإما الواو زائدة[(١)] واللام للتعليل، ومتعلق الموقنين، قيل: بوحدانية الله وقدرته، وقيل: بنبوته ورسالته، وقيل: عيانًا كما أيقن بيانًا، انتقل من علم يقين إلى عين يقين»[(٢)]، وقيل: ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسًّا لا خبرًا.

فُطر نبي الله إبراهيم على الإسلام كسائر البشر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[(٣)]، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء**»[(٤)]، وقال الله في كتابه العزيز: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ناظرًا في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، وهذا ما يؤيد

---

(١) والأصح أن يقال: الواو مزيدة لا زائدة، زيدت لمزيد معنى، ذكر ذلك أستاذنا وشيخنا الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم القيعي، ولعلها زيدت لبيان أن رؤيته الملكوت سبب زيادة يقينه لا مجرد اليقين.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٧١)، وقد عرف الرازي اليقين فقال: «اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبة بسبب التأمل، ولهذا لا يوصف علم الله بكونه يقينًا؛ لأن علمه غير مسبوق بالشبهة، وغير مستفاد من الفكر والتأمل، وإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سببًا لحصول اليقين؛ إذ يحصل بكل واحد منها نوع تأثير وقوة فتتزايد حتى يجزم».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا.

قال ابن عطية: «الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ﴾ رابطة جملة ما بعدها بما قبلها، وهى ترجح أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية»(١).

كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد نبي الله إبراهيم أن يردهم لرشدهم وأن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئًا منها لا يصح أن يكون إلهًا لقيام دليل الحدوث فيها جميعًا، وأن وراءها محدثًا أحدثها، وصانعًا صنعها، ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، فلا غرو إذن فبعد أن حطم عليه السلام أصنامهم وسفه أحلامهم وعرى فساد معتقدهم أمامهم عرج إلى بقية آلهتهم من الشمس والقمر والنجوم فحاورهم فيها وناظرهم هذه المناظرة والتي أثبت لهم فيها فساد معتقدهم وشرود فكرهم وضلال سعيهم؛ حتى يعودوا عن غيهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى خالقهم ورازقهم، فيعرفوا له فضله وقدره ويؤدوا له حقه.

اختلف أهل التأويل في قول نبي الله إبراهيم: ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ على أقوال وهي:

ما روي عن ابن عباس: «أن ذلك وقع له في حال صباه وقبل بلوغه، وأنه عبده حتى غاب، وعبد القمر حتى غاب، وعبد الشمس حتى غابت». قال أبو حيان: لعله لا يصح.

وما حكي عن قوم: «أن ذلك بعد البلوغ والتكليف». قال أبو حيان: ليس بشيء(٢).

وما حكي(٣): «من أن أمه أخفته في غار وقت ولادته؛ خوفًا من نمرود، أنه أخبره المنجمون أنه يولد ولد في سنة كذا يخرب ملكه على يديه، وأنه من ولد من أنثى تُركت، ومن ذكر ذبحه إلى أن صار ابن عشرة أعوام -وقيل: خمسة عشر- وأنه نظر أول ما عقل من الغار، فرأى الكوكب»، فهذه حكاية يردها ويدفعها مساق الآية، ويدفعها قوله عليه السلام: ﴿ قَالَ

(١) نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ١٧١).
(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٧١).
(٣) المرجع السابق.

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقول الله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

تأول بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ على إضمار القول، وكثيرًا ما يضمر، تقديره: «قال: يقولون: هذا ربي» على حكاية قولهم، وتوضيح فساده مما يظهر عليه من سمات الحدوث، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولون ربنا تقبل منا، ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وما لا يدوم.

قيل: إن جملة ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ استفهامية على جهة الإنكار حذف منها الهمزة، تقديره: أهذا ربي؟ كقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؛ أي أفهم الخالدون؟ وذكره على وجه التوبيخ منكرًا لفعلهم؛ يعني: ومثل هذا يكون ربًّا؛ أي: ليس هذا ربي. ومثله قول الهذلي[(١)]:

رقوني وقالوا يا خويلد لم ترع ... فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أي: أهم هم؟

وقول الآخر[(٢)]:

لعمرك ما أدري وإن كنت داريًا ... بسبع رمين الجمر أم بثمانيا

أي: أبسبع؟ وقيل: المعنى: وأنتم تقولون هذا ربي، فأضمر القول. قال ابن الأنباري: «هذا شاذ؛ لأنه لا يجوز أن يحذف الحرف إلا إذا كان ثَم فارق بين الإخبار والاستخبار»[(٣)].

(أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في

---

(١) الأغاني للأصفهاني، ذكر أبو خراش الهذلي وأخباره (٥/ ٣٩٤)، وقال: رفوني بالفاء: سكنوني، وقالوا: لا بأس عليك.

(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح (١/ ١٠٣)، والبيت لابن أبي ربيعة.

(٣) تفسير فتح القدير (٢/ ١٩٣).

تعظيم ما عظموه، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها، ويرون أن الأمور كلها إليها، فأراهم أنه معظم ما عظموه وملتمس الهدى من حيث ما التمسوه، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدعون، ومثل هذا مثل الحواري الذي ورد على قوم يعبدون الصنم فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدو فشاوروه في أمره فقال: الرأي أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما قد أظلنا، فاجتمعوا حوله يتضرعون، فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوا الله فدعوه، فصرف عنهم ما كانوا يحذرون؛ فأسلموا)[1].

قال الزمخشري: «﴿ هَـٰذَا رَبِّي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة»[2].

وقال الطاهر بن عاشور: «واسم الإشارة هنا لقصد تمييز الكوكب من بين الكواكب، ولكن إجراؤه على نظيريه في قوله حين رأى القمر وحين رأى الشمس «هذا ربي هذا ربي» يعين أن يكون القصد الأصلي منه هو الكناية بالإشارة عن كون المشار إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عثر عليه أشير إليه.

وتعريف الجزأين مفيد للقصر؛ لأنه لم يقل: هذا رب. فدل على أن إبراهيم عليه السلام أراد استدراج قومه فابتدأ بإظهار أنه لا يرى تعدد الآلهة ليصل بهم إلى التوحيد، واستبقى واحدًا من معبوداتهم ففرض استحقاقه الإلهية كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَبِّي ﴾ إنما يقوله لمخاطب، ولقول إبراهيم عليه السلام عقب ذلك: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، ولأنه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة واستدل به على براءته مما يشركون مع أنه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى لولا أن ذلك هو مدعى قومه؛ فدل ذلك كله على أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على سبيل

(١) تفسير البغوي (١/ ١٥٩).

(٢) تفسير الكشاف (٢/ ٤٠).

المحاورة والمجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم؛ ليصلوا إلى تلقي الحجة ولا ينفروا من أول وهلة، فيكون قد جمع جمعًا من قومه وأراد الاستدلال عليهم.

وقوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أي: خالقي ومدبري، فهو مستحق عبادتي، قاله على سبيل الفرض جريًا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم، فأظهر أنه موافق لهم ليهشوا إلى ذلك ثم يكر عليهم بالإبطال إظهارًا للإنصاف وطلب الحق. ولا يريبك في هذا أن صدور ما ظاهره كفر على لسانه عليه السلام، لأنه لما رأى أن ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده، ولا يزيد قوله هذا قومه كفرًا كالذي يكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإنه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى. وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي»[1]، وهذا القول حسن.

وقيل: إن كلمة ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ جملة خبرية للإنكار لا الإقرار، كمن يقول لصاحبه عن ولده: هذا أسد، فإذا رآه على غير ما تصور أو توقع قال: هذا أسد على سبيل الإنكار لا الإقرار؛ تنزيها لنبي الله إبراهيم من مجاراة المشركين على شركهم، وهو من هو، صاحب الحنيفية السمحاء، والمعلن براءته من الشرك والكفر وأهله في مواجهتهم من غير مواربة حتى أصبح قدوة للناس في ذلك؛ كما حكاه تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقيل: هذا الإنكار للاحتجاج عليهم كأنه قال: هذا ربي بزعمكم؟ فلما غاب قال: لو كان إلهًا لما غاب كما في قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي: عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٧]، يريد إلهك بزعمك. وهذا

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٧/ ٣١٨-٣٢٠) بتصرف.

القول من أعدل الأقوال.

والخلاصة: أن نبي الله إبراهيم عليه السلام استدل بأفول الكواكب والقمر والشمس على أنها ليست بآلهة لحدوثها، فتكون محتاجة إلى محدث لا يكون حادثًا؛ إذ كل حادث لا بد له من محدث ينتهي إليه، وإلا لزم الدور والتسلسل في المؤثرين إلى ما لا نهاية، وهذا يمتنع قطعًا.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ **هَـٰذَا رَبِّى** ﴾ مشركًا؛ لأن سوق الكلام على جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام، وهذا من قبيل سياسة الحوار والجدل إذا صح هذا التعبير.

وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**». قال ﷺ ذلك تبرئة لساحة نبي الله إبراهيم عليه السلام.

٨- الاستدلال على الخصم بإظهاره بمظهر المعاند والمتشهي والمتحكم:

وهو أن يبين للخصم أنه لا حجة له فيما يدعيه سوى التشهي والتحكم بالباطل؛ حيث إنه إذا جاءه ما يوافق هواه قَبِلَه، وإن جاءه ما يخالف هواه ردَّه.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى في حق أهل الكتاب: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٧]، في هذه الآية إظهار من الله تعالى لطبيعة اليهود العدوانية، فقد غلبتهم شهوتهم فلا يرضون من الرسل إلا بما يوافق هذه الشهوة ويرضيها، فهم لا يقبلون الحق؛ بل الضلال هو الغالب عليهم، (وقوله تعالى: ﴿ **ٱسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ أي: عن إجابته احتقارًا للرسل واستبعادًا للرسالة، والفاء في قوله: ﴿ **أَفَكُلَّمَا** ﴾ للعطف على مقدر؛ أي آتيناكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم، أفكلما جاءكم رسول... وفريقًا منصوب بالفعل الذي بعده، والفاء للتفصيل، ومن الفريق المكذَبين عيسى ومحمد، ومن الفريق المقتولين يحيى وزكريا)[1].

(وقال تعالى: ﴿ **تَقْتُلُونَ** ﴾ إنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضارًا

(١) تفسير فتح القدير (١/ ١٧٢).

لها في النفوس، فإن الأمر فظيع، أو مراعاة للفواصل أو للدلالة على أنكم بعد فيه، فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة)[(١)].

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٨٥]، قال المفسرون: كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾[(٢)]، والاحتجاج على الخصم بمثل هذا مفحم وملزم له؛ إذ لا يستطيع الإجابة عليه.

فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض الشرائع يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعًا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له[(٣)]، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

(قال أبو جعفر: وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم، وذلك أن الله -جل ثناؤه- أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى -صلوات الله عليه- وجادلوا فيه إلى فاصلة

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٣٥٧).
(٢) تفسير فتح القدير (١/ ١٧٠).
(٣) مناهج الجدل للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص٧٨).

بينه وبينهم من المباهلة، وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله في جنانه إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم، فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك؛ لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى إذ دعوا إلى المباهلة من المباهلة، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرءوا مقاعدهم من النار»، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا)[1].

ولأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب، كما قال علي ﷺ: «لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليَّ»، وقال عمار - رضي الله تعالى عنه- بصفين: «الآن ألاقي الأحبة محمدًا وحزبه»، وقال بلال حين احتضر: «غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه»، وقال حذيفة ﷺ حين احتضر: «جاء حبيب على فاقة لا أفلح من ندم» أي: على التمني سيما إذا علم أنها سالمة له.

٩- الانتقال في الاستدلال:

وهو أن ينتقل المستدل من دليل إلى دليل، أو من مثال إلى مثال لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الدليل أو المثال الأول، أو عند فهمه وجه الدلالة ولكنه يقصد المغالطة فيأتي بدليل أو مثال آخر لا يجد الخصم معه مفرًّا دون الانقطاع أو التسليم[2].

ومن أمثلة هذا ما حكاه الله تعالى عن مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود؛ حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٦٨).

(٢) مناهج الجدل للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص٧٦).

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهمزة الاستفهام هنا لإنكار النفي وتقرير المنفي، وقيل: مجازي متضمن معنى التعجب؛ أي ألم تنظر أو ألم ينته علمك إلى هذا الطاغوت المارد؛ أي النمرود بن كنعان ملك زمانه، وصاحب النار والبعوضة[(١)]، والذي حاج إبراهيم عليه السلام في وجود ربه ووحدانيته؛ أي عارض حجته، وقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ الظاهر أن الضمير في (آتاه) عائد على الذي حاج، وهو قول الجمهور، ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ﴾ مفعول لأجله على معنيين؛ أحدهما: أن الحامل له على المحاجة هو إيتاؤه الملك، أبطره وأورثه الكبر والعتو، فحاج لذلك، وعدَّه الطاهر بن عاشور تعليلًا محضًا حذفت منه لام التعليل، وعدَّه الزمخشري تعليلًا غائيًّا، والثاني: أنه وضع المحاجة موضع ما وجب عليه من الشكر لله تعالى على إيتائه الملك، وقيل: اللام استعارة تبعية لمعنى يؤدى بحرف غير اللام والداعي لها هو التهكم، وأجاز الزمخشري[(٢)] أن يكون التقدير: حاج وقت أن آتاه الله الملك، على حذف مضاف، ورأيه فيه بُعد؛ لأن إيتاء الملك سابق على المحاجة بزمن.

إن من تأمل موقع الاحتجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة، (و قد ذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة، لكنه أمر له حقيقة ومجاز، قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة وفزع نمرود إلى المجاز وموَّه على قومه فسلم له إبراهيم تسليم المحاور والجَدِل، وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: انقطعت حجته، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق؛ لأن ذوي الألباب يكذبونه)[(٣)].

وقال الإمام البغوي: «انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا عجزًا له، فإن حجته كانت لازمة؛

---

(١) قاله مجاهد وقتادة والربيع والسدي وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم، ذكره أبو حيان في البحر المحيط (٢/ ٢٩٧).

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (١/ ٣٠٥).

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٢٧١).

لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت، فكان له أن يقول: فأحي من أمتّ إن كنت صادقًا، فانتقل إلى حجةٍ أخرى أوضح من الأولى، ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: تحير ودهش وانقطعت حجته»(١).

(فلو قال له: ربي الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على ذلك؟ لبهت الذي كفر بادئ ذي بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى؛ تنفيسًا لخناقه وإرسالًا لعنان المحاورة والمناظرة، فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة. وقوله: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ بهت الرجل وبهت وبهت: إذا انقطع وسكت متحيرًا)(٢).

وقال ابن القيم: «ليس هذا انتقالًا من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة»(٣).

وقال الإمام البيضاوي: «هو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره لا عن حجة إلى أخرى، ولعل نمرود زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك»(٤).

(لقد عارض النمرود بأنه يحيي ويميت، ولم يقل: أنا الذي يحيي ويميت؛ لأنه كان يدل على الاختصاص وكان الحس يكذبه، إذ قد سبقه أحياء مَاتوا قبل وجوده، وإنما أراد أن هذا الوصف الذي ادعيت فيه الاختصاص لربك ليس كذلك، بل أنا مشاركه في ذلك، ولم يقل تعالى: فبهت الذي حاج؛ إشعارًا بأن تلك المحاجة كفر، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون الجملة التي قبله)(٥).

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٣١٥).
(٢) تفسير فتح القدير (١/ ٤١٩).
(٣) الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٤٩١).
(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٥٥٩).
(٥) تفسير القرطبي (٣/ ٢٧١).

١٠- الاستدراج:

قال ابن الأثير: وهو التوصل إلى حصول الغرض من المخاطَب أو المحاوَر والملاطفة له في بلوغ المقصود من حيث لا يشعر به.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ **وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا** ﴾ [مريم: ٤١-٤٢].

وهنا تجد نبي الله إبراهيم عليه السلام حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطًا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أَمْرَ العقل كيف رتب الكلام معه في أحسن سياق وانتظام مع استعمال المجاملة واللطف واللين والأدب الجميل والخلق الحسن مستصحبًا في ذلك نصيحته، وذلك أنه طلب منه أولًا نقله عن خطيئته، طلب منبهٍ على تماديه، مُوقِظ له من إفراطه وقِلة تناهيه؛ لأن المعبود لو كان حيًّا مميزًا سميعًا بصيرًا مقدرًا على الثواب والعقاب إلا إنه بعض الخلق لا يُشَك في نقص عقل من أَهَّله للعبادة ووصفه بالربوبية ولو كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين، فكيف بمن جعل المعبود جمادًا لا يسمع ولا يبصر.

ثم ثني ذلك بدعوته إلى الحق مترفقًا به ومتلطفًا، فلم يتهم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكن قال: إن معي لطائف وشيئًا منه، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل، فتنبه.

ثم ثلث بتنشيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذي ورطك في هذه الورطة وألقاك في هذه الضلالة، إلا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإمعانه في الخلاص لم يذكر من جناية الشيطان إلا الذي يختص منها بالله عز وجل وهى عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وبنيه.

ثم ربَّع ذلك بتخويفه سوء العاقبة وما ينتج عليه من الوبال، ولم يخل هذا الكلام من حسن أدب؛ حيث لم يصرح بالعقاب اللاحق بأبيه، ولكنه قال: إني أخاف أن يمسك عذاب من

الرحمن، فذكر الخوف والمس؛ إعظامًا لهما، وترك العقاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه أكثر من العذاب، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: يا أبت؛ توسلًا إليه واستعطافًا، فقال له في الجواب: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم: ٤٦].

ألا تري كيف أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظ العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قول: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى ﴾ بيا بني، وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن ﴾ لأنه أهم عنده، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب أحد عنها.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

ألا تري ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطف مغزاه، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبًا فكذبه يعود عليه ولا يتخطاه، وإن كان صادقًا فيصيبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له. وفى هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك أيها المتأمل وأقول: إنما قال: يُصبكم بعض الذي يعدكم، وقد علم أنه نبي صادق، وأن كل ما يعدهم به لا بد من أن يصيبهم لا بعضه، ولأنه احتاج مع أدلة خصم موسى أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول ويأتيهم من جهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم ﴾ وهو كلام المنصف في مقابلة خصمه غير المشتط فيه، وذلك حين وصفه الله بكونه صادقًا، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يقر به، لكنه أردفه بقوله: ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلًا من أن يتعصب له، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا

القبيل، وكذا قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾ أي: لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله بالنبوة ولا عضده بالبينات، فتبين بذلك هذه الدقائق اللطيفة الصنع التي تدل علي التيقظ في صناعة التأليف.

١١- الإسجال:

وهو أن تثبت وتضبط على لسان خصمك ألفاظًا في سياق آخر تسجل به عليه ما كان عنده محل شبهة وإنكار[(١)]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥]. فقولهم: نعم هنا فيه إسجال؛ حيث إن ما اعترفوا به في هذا الموقف كان محل شبهة وإنكار منهم، مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به؛ بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم، وأن هاهنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق؛ أي قالوا لهم: ﴿ قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ ﴾.

والمعنى: «إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم؟ والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ، وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس؛ كالبعث والحساب والعقاب، وقيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد ﴿ قَالُواْ نَعَمۡ ﴾ أي: وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا»[(٢)].

وفي الحديث: (أن رسول الله ﷺ قرع قتلى القليب يوم بدر فنادى: «**يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة** -وسمى رءوسهم- **هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا**» وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جيّفوا؟ فقال:

(١) الإتقان للسيوطي (٤/ ٦٥، ٦٦).

(٢) تفسير فتح القدير (٢/ ٣٠٢).

«والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»)[1].

١٢- خذلان المخاطب:

وهو الأمر بعكس المراد، ويدل ذلك على الاستهانة بالمأمور وقلة المبالاة بأمره؛ أي أنا مقابلك على فعلك ومجازيك بحسبه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

فقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ من باب الخذلان ؛ كأنه قال له: إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك ونأمرك بتركه. وهذا مبالغة في خذلانه؛ لأن المبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على ضد ما أمر به...

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

فإن المراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان على ما سبق ذكره.

وفي هذا الكلام معنيان لطيفان وهما:

الأول: أي أن عبادتكم لله وعبادتكم لغيره إنما تنفع أو تضر لكم لا لسواكم، فالله تعالى مستغنٍ عن عبادكم له.

الثاني: توعده لهم بالمقابلة على فعلهم من غير تصريح بالوعيد، وذلك أبلغ من التصريح به؛ لوقوع الموعود في حيرة من أمره وترامي وهمه عند ذلك إلى كل خطب عظيم من المجازاة والمقابلة؛ كقولك لمن عصاك: افعل ما شئت؛ أي أني مقابلك عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٨).

١٣- الاستخدام:

وهو أن تكون للكلمة معنيان فيحتاج إليهما، فيذكرها وحدها، فيستخدم المعنيين كما في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ** ﴾ [النساء: ٤٣]، والصلاة هاهنا يحتمل أن تكون فعل الصلاة أو موضع الصلاة، فاستخدم الصلاة بلفظ واحد لأنه قال سبحانه: ﴿ **عَابِرِي سَبِيلٍ** ﴾ فدل على أنه أراد موضع الصلاة. وقال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ** ﴾ فدل على أنه أراد فعل الصلاة.

وأنشدوا للبحتري[(١)]:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحٍ وقلوب

الغضا: يحتمل أن يكون الموضع ويحتمل أن يكون الشجر، فاستخدم المعنيين بلفظ واحد، والساكنيه: أراد المكان والشجر بقوله: وإن هم شبوه.

ومن ذلك لبعض العرب:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحٍ وقلوب
إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غِضَابا

والسماء: يحتمل معنيين؛ المطر والنبات، فاستخدم المعنيين بقوله: إذا نزل؛ يعنى المطر، رعيناه؛ يعني النبات.

وكما قال الشيخ أبو العلاء[(٢)]:

وفقيهٍ أفكاره شِدنَ للنعمان ما لم يشده شعر زياد

يحتمل معنيين؛ أحدهما: أن يكون النعمان بن المنذر الملك، والآخر: أن يكون النعمان بن

---

(١)كتاب تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر (١/ ٢٩)، ودواوين الشعر العربي على مر العصور (٢٥/ ٢٥٦).

(٢)أبو العلاء المعري ذكره البديع في نقد الشعر (١/ ١٨)، وخزانة الأدب (١/ ١٢١).

ثابت الفقيه، فاستخدم المعنيين بلفظ واحد فقال: شدن للنعمان؛ يعني أبا حنيفة ﷺ، وقال: شعر زياد؛ يعني النعمان بن المنذر؛ لأن زياد هو النابغة مدح النعمان.

وكما قال أبو تمام[1]:

وإذا مشت تركت بصدرك ضعف ... ما بحليها من شدة الوسواس

لأن الوسواس يحتمل معنيين؛ وهو بلابل الصدر، وصوت الحلي، فاستخدم المعنيين بقوله: تركت بصدرك؛ يعنى البلابل، وبقوله: ضعف ما بحليها؛ يعني صوت الحلي.

ومنه:

اسمُ مَن ملّني ومن صد عني ... وجفاني لغير ذنب وجرم

والذي ضن بالوصال علينا ... مثلما ضن بالهوى قلب نعْمِ

هذا استخدام في الإعراب؛ لأن قلب مرفوع بالخبر وفاعل ضن، وهو أيضًا استخدام في المعني؛ لأنها معني بقلب من المقلوب؛ لأن الاسم معن، فهو معكوس نعم، فاعرفه.

ومنه في الكتاب العزيز كثير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا** ﴾ [الكهف: ٧٩] يحتمل أن يكون أراد وراءهم؛ أي في طلبهم، ويحتمل أن يكون أراد أمامهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والقرء: الحيض، والقرء أيضًا: الطهر، واللفظ يحتمل المعنيين، فاعرفه.

---

(١) البديع في نقد الشعر (١/ ١٨).

المبحث الثالث
أساليب القرآن
في حوار بعض أصحاب الحضارات

لقد حاور القرآن الكريم بعض أصحاب الحضارات كأهل الكتاب وغيرهم بأساليب عدة، والتي منها ما يلي:

أسلوب المبادأة والمبادرة الجلية:

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن أخذ زمام المبادرة في محاورة أصحاب الحضارات ومنهم أهل الكتاب ينبغي أن ينشأ من الجانب المسلم، فيحاور غيره، ويعرض عليهم دعوته الصادقة، ويدلنا على ذلك النداء في الآية، ففيه دعوة للحوار، وفي العصر الحاضر غالبًا ما تأتي الدعوة للحوار من الأطراف غير الإسلامية من أصحاب الحضارات وغيرهم، وهذه الآية تدلنا على أن كل مسلم مطالب بالمبادرة بدعوة الآخرين إلى الحق الذي يحمله ما دام أهلًا للدعوة والبلاغ، بل والإعداد لهذا الحوار عدته، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٦٤]، فلن تقوم للأمة الإسلامية قائمة بين الأمم إلا إذا عرفت دورها وخطورة مهمتها، فهي موقعة عن ربها، حاملة لرسالة نبيها، داعية إليها جميع الأمم من حولها، شاهدة عليها في كل ما أبلغتها من وحي ربها، قائمة على محاورتها ونصحها حتى تؤدي ما عليها ثم تردها عن غيها، وتعيد إليها رشدها المغيب عنها.

أسلوب التذكير والعظة والعبرة:

إن من أعظم أساليب ووسائل التأثير في الناس أخذ الدروس والعبر من التاريخ والوقائع والأحداث التي جرت ووقعت لغيرنا من أصحاب الحضارات؛ كأهل الكتاب وغيرهم، لذا جاءت نصوص القرآن الكريم مشحونة بذلك، فعلى سبيل المثال: تضمن القرآن الكريم ذكر

ثلاثًا وعشرين واقعة مصدرة بكلمة ﴿ وَإِذْ ﴾ الظرفية والتي تعني - كما ذكر كثير من أهل التفسير-: واذكروا إذ، وفي كل موضع تذكر أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب الحضارات بما جرى من أسلافهم مع أنبيائهم، وعواقب ذلك حال انصياعهم لدعوة أنبيائهم ومحاوراتهم لهم، أو رفضهم لها ومعاداتهم لأهل الحق ودعاته، يذكر القرآن الكريم ذلك للأحياء من أصحاب الحضارات الحديثة وغيرهم من أجل تذكيرهم واعتبارهم واستبصارهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٩-٥١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣-٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وغيرها كثير.

ويؤخذ من هذا أنه ينبغي على المسلمين اعتماد هذا الأسلوب القرآني في محاورة ومخاطبة أصحاب الحضارات من أهل الكتاب وغيرهم؛ لما لهذا الأسلوب من قوة تأثير وخاصة أن كثيرًا من هذه الوقائع التاريخية مذكورة في كتبهم.

أسلوب الترغيب والإغراء:

إن أسلوب الترغيب من أنجع الأساليب وأدعاها إلى قبول الحق والاغتباط به؛ لأن فيه من الإغراء ما يحفز أصحاب الهمم العالية والنفوس التواقة إلى الكمالات، وإلى استشراف الهدى بنفس مستبشرة بفضل الله ورحمته، وهو لا يهدر الماضي بإطلاق، ويسفهه بالكلية، ويحطم سائر أعماله؛ بل يجعل الحاضر امتدادًا لصواب الماضي، ونورًا وهدى ورحمة وفضلًا وخروجًا من الظلمات إلى النور، وعفوًا ومغفرة عن خطئه وانحرافه، ويعدهم على ذلك خيري الدنيا والآخرة، ومن خير الدنيا فتح بركات الله عليهم من السماء والأرض حتى يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن خير الآخرة الفوز بكفلين من رحمة الله تعالى وجناته ورضوانه.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يقال للمدينة: قرية لاجتماع الناس فيها من قريت الماء إذا جمعته، ﴿ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات وترك الشرك، ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض، (أي يسرنا لهم خير السماء والأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها، قيل: المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض: النبات، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك، ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس)[(١)].

وقال القرطبي: «وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم؛ إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرًا لذنوبهم، ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١١]، وعن هود: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ ﴾ [هود: ٥٢]، فوعدهم المطر والخصب على التخصيص»[(٢)]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ (قال الأخفش والكسائي: أي فهلا، وفي مصحف أبي وابن مسعود: فهلا، وأصل لولا في الكلام التحضيض، أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره، ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس، فهو بحسب اللفظ

(١) تفسير فتح القدير (٢/ ٣٣٢).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٢٥).

استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى متصل؛ لأن تقديره: ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس)[١].

(لقد أقام نبي الله يونس يدعو قومه تسع سنين فيئس من إيمانهم، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم في تلك الحالة، وقال ابن مسعود: وكان الرجل يأتي الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيرده ... وعن ابن عباس: أنهم غشيتهم ظلة وفيها حمرة، فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرها بين أكتافهم، وقال ابن جبير: غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب، وقال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب، وذُكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قلت: قول الزجاج حسن: فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس)[٢].

وقال ابن كثير: «لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا»[٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٣٤١).
(٢) المرجع السابق بتصرف.
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٩).

﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

فقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾، قال ابن عباس وغيره: هو القرآن، ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدًا ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتمًا لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾، (يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ يعني: لأرسل السماء عليهم مدرارًا، ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها)[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٨-٢٩].

يأيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين التوراة والإنجيل خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله محمد ﷺ، وقوله: ﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل ﴾ يعطكم ضعفين من الأجر لإيمانكم بعيسى ﷺ والأنبياء قبل محمد ﷺ، ثم إيمانكم بمحمد ﷺ حين

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤، ١٠٥).

بعث نبيًّا، وأصل الكفل الحظ، وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط، يقول: يحصنكم هذا الكفل من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من السقوط[١].

(قال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل ﴾ أي: ضعفين ﴿ مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ وزادهم ﴿ لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم ففضلهم بالنور والمغفرة، رواه ابن جرير عنه[٢].

وزاد ابن جرير فقال: (فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن بقوله: ﴿ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص: ٥٤] فخروا على المسلمين فقالوا يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا فأنزل الله﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ﴾ فجعل لهم أجرهم وزادهم النور والمغفرة)[٣].

أسلوب الترهيب والتحذير:

لقد جبلت النفوس البشرية على الاهتمام بما ترغب وتشتهي، وعلى الحذر مما تخشى وترهب، فالترغيب والترهيب للإنسان كالجناحين للطائر لا يقوى على الطيران بدونهما، ومن هاهنا كان الترهيب ضرورة لتقويم الإنسان وتقوية عزمه وهمته وحمله على إعادة النظر دائمًا وباستمرار في تصحيح كل ما عنده من معتقد أو قول أو فعل، والنفس البشرية إذا لم يحفزها حافز الترغيب، ردعها رادع الترهيب.

والمتدبر في القرآن الكريم يجده قد حوي كمًّا كبيرًا من آيات الترهيب لحمل أصحاب الحضارات وغيرهم على ردع نفوسهم وردها عن غيها حتى تثوب لرشدها. ومن أمثلة ذلك:

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٦).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٦٩٣).

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [النساء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وغيرها من الآيات التي ترتجف لها القلوب التي لها أدنى مسحة من حياة، فتتحرك ملكاتها وتشتد للعمل عزائمها، وتُقوِي صاحبها على توقير الله وتقديره والبحث الحثيث عما يرضيه وتنفيذه، والبحث عما يكرهه والفرار منه، وتحذير النفس والجوارح من الوقوع فيه؛ لأن الترهيب حامل للقلب على توقير الرب تعالى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وهذا هو الترهيب الممدوح والذي ثمرته الخوف المحمود، بخلاف الخوف المذموم الذي يفضي بصاحبه إلى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله.

أسلوب الإنكار والتوبيخ:

لقد أنكر الله تعالى على الكفرة والمعرضين عن الحق من أهل الحضارات كفرهم وإعراضهم، ووبخهم على أمور عدة في مواضع من كتابه وعلى ألسنة أنبيائه ورسله، منها:

- كفرهم بآيات الله مع قيام الحجة عليهم كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ

﴿ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٨]، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]، ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

• لبسهم الحق بالباطل كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران: ٧١]، ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

• صدهم عن سبيل الله كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

• نقمتهم على أولياء الله وبثهم الأكاذيب والدعايات المضللة عنهم في كل وسائل إعلامهم ونشرهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة: ٥٩].

• إنفاقهم أموالهم وبذلهم جهدهم لصرف الناس عن دين الله الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

• السعي الحثيث لإنزال العنت والمشقة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

• الغلو في دينهم واتباعهم لأهوائهم حرصًا منهم على إضلال الناس، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧].

ويؤخذ من هذه النصوص أن من أساليب محاورتهم استمرار النكير عليهم بإنكار منكرهم، وتوبيخهم على جرائمهم في حق أنفسهم وحق الناس من حولهم، وفضحهم على رءوس الأشهاد حتى يعلم الناس حقيقتهم وحقيقة ما عندهم.

أسلوب المحاججة والنقض:

لقد اعتاد الكثير من الكفرة والمبطلين من أصحاب الحضارات وغيرهم أن يتشبثوا ببعض الشبهات؛ بل بخيوط العنكبوت لمجادلة ومحاورة أهل الإيمان، والتشويش عليهم، والصد عن سبيل الله، وجاء الوحي ليهتك أستارهم ويكشف أسرارهم، ويُعلم أهل الحق ذلك ليعاملوهم بمثله، ويبينوا للناس تهافت حججهم ودعاويهم، بل يدعو أهل الحق لمنازلتهم ومحاورتهم ومناظرتهم، ويوجب ذلك عليهم إقامة لحجة الله تعالى عليهم ورفعًا لِلّبس عن الناس، ولله درّ ابن القيم حين استخلص من قصة وفد نجران هذا المعنى فقال: «ويؤخذ منها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه، إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يُرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب عن محاورتهم ومجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك إلى أهله، وليخل بين المطى وحاديها والقوس وباريها»[(١)].

ومن أمثلة ذلك: قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٤-٦].

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٦٣٩).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴾ [سبأ: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

فكل ما نصَّت عليه الآيات السابقة ما هو إلا شبهات واهية، وكما رأينا جاءت محاورات القرآن الكريم لهم وردوده الحق في نفس الآيات أو في التي تليها؛ ليدحض شبهاتهم وليظهر زيفها وأن الحق في سواها.

أسلوب المباهلة:

لقد سردت سورة آل عمران الحوار الطويل الذي دار بين النبي محمد ﷺ وبين وفد نصارى نجران، فلما أقيمت عليهم الحجة واستبانت لهم المحجة فأبوا إلا أن يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فإذا بالحق -تبارك وتعالى- يعلم نبيه محمدًا ﷺ أن يعاملهم بأسلوب جديد ألا وهو أسلوب المباهلة، والذي عنه قال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ

﴿ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

(وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم، قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يئول أمرهم إليهم؛ وهم: العاقب واسمه عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأويس بن الحارث، وزيد وقيس ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ويحنس، وأمر هؤلاء يئول إلى ثلاثة منهم؛ وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان رجلا من العرب من بني بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة، ولكن حمله جهله على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جِبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**» فصلوا إلى المشرق، قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا)[1].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٠).

ومعنى الآية: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ ﴾ (فمن جادلك يا محمد في المسيح عيسى ابن مريم، والهاء في قوله: ﴿ فِيهِ ﴾ عائدة على ذكر عيسى، وجائز أن تكون عائدة على «الحق» الذي قال تعالى ذكره: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، ويعني بقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ من بعد ما جاءك من العلم الذي قد بينته لك في عيسى أنه عبد الله، ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ ومن من ذلك تبعيضيه، وقيل: لبيان الجنس، ﴿ فَقُلْ ﴾ أي: لمن حاجك ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أي: أقبلوا بالرأي والعزيمة، وأصله طلب الإقبال إلى مكان مرتفع، ثم توسع فيه فاستعمل في مجرد طلب المجيء)[١].

وقال الشوكاني: «أي: هلموا وأقبلوا، وأصله الطلب لإقبال الذوات، ويستعمل في الرأي إذا كان المخاطب حاضرًا، كما تقول لمن هو حاضر عندك: تعالَ ننظر في هذا الأمر»[٢].

﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ يقول: ثم نلتعن، يقال في الكلام: ما له؟ بهله الله؛ أي: لعنه الله وما له؟ عليه بهلة الله، يريد اللعن.

أصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره، يقال بهله الله: أي لعنه، والبهل: اللعن. قال أبو عبيد والكسائي: نبتهل: نلتعن، ويطلق على الاجتهاد في الهلاك، ومنه قول لبيد[٣]:

في كهول سادة من قومه نظر الدهر إليهم فابتهل

أي: فاجتهد في الدعاء عليهم بالهلاك. قال في الكشاف: «ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانًا».

﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ منا ومنكم في أنه عيسى[٤].

الخلاصة: أن أسلوب المباهلة هو درجة متقدمة في سلم مخاطبة أصحاب الحضارات

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي (٣/ ١٨٧).

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٢٣).

(٣) دواوين الشعر العربي على مر العصور (٣/ ٤١٠)، أساس البلاغة (١/ ٣٤).

(٤) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٥).

وخاصة أهل الكتاب منهم، يصار إليها عند الإصرار وكمال الإعذار، وانقطاع الخصم، وتقشع الشبه بالحجة والبيان.

فإذا أعيت الحيلة، وتبين عناد الخصم أُلجئ إلى المباهلة، وهى أسلوب مفيد من جهتين:

- إظهار التحدي، والثقة التامة بأن الداعي إلى المباهلة على الحق.

- إرهاب المعاند، وحمله على الجد والحزم، بالتعرض للعنة الله، فينتقل من حالة المنازعة الجدلية النظرية إلى مقام المواجهة العملية المخيفة، فربما استغفر وتاب.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في فقه قصة وفد نصارى نجران: «ومنها: أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله ﷺ، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك... وهذا من تمام الحجة»[(١)].

أسلوب المفاصلة:

إن المنهج القرآني في الحوار مع أصحاب الحضارات وغيرهم يقوم على الصدق والبينة، فكما أنه يغتنم كل فرصة، ويبادئ غيره بالدعوة الواضحة إلى أصول الدين والاعتقاد، فإنه لا يدع الأمر معلقًا غير محسوم لا ينتهي إلى حد واضح؛ بل يحسم أمره، ويحمل غيره على تحديد موقفه، بعد البيان التام، وكشف الشبهة، وإقامة الحجة.

فيختار المحاوَر؛ فإما الإسلام وإما التولي، وحينئذٍ فلابد للمحاوِر المسلم من الجهر والإعلان والإشهاد، بأنه مسلم ولن يرضى عنه بديل، وليُعلِم من سواه أنه ليس كذلك، كما علمنا الحق -تبارك وتعالى- ذلك فقال: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ **فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ**

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٤٣).

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فأما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (فإنه يعني: فإن تولى الذين تدعوهم إلى الكلمة السواء عنها وكفروا، فقولوا أنتم أيها المؤمنون لهم: اشهدوا علينا بأنا بما توليتم عنه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، وأنه الإله الذي لا شريك له ﴿مُسْلِمُونَ﴾ يعني: خاضعون لله به، متذللون له بالإقرار بذلك بقلوبنا وألسنتنا)[1].

ومن ذلك موقف أهل الإيمان من قوم نبي الله صالح عليه السلام مع ضعفهم، والذي عنه قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وهكذا ينبغي أن يكون البيان الختامي من طرف واحد حال تولي الطرف الآخر، لا أن تميع الحقائق ولا أن يكون البيان الختامي البحث عن قضايا مشتركة يعلنها طرفا الحوار فيكسب أصحاب الحضارات من أهل الكتاب وغيرهم تنازل المسلم عن دعوته الأساسية ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٩).